الحُبُك في القرآن

أ. د. زينب عبد العزيز

2021

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}

المقدمة

أجمع علماء المسلمين قديما وحديثا على أن كلمة "**الحُبُك**" قاصرة على فراغ السماء وشرحوا مختلف معانيها بوضوح انطلاقا من حبكة النسيج، وأصابوا.. ومع تقدم العلوم وتطورها بصورة لم تخطر على بال الأولين، وصلنا إلى معاني جديدة واكتشافات عديدة خاصة في تعريف الفراغ الذي كان يعني "لا شيء". وهنا ما يعنينا هو فراغ السماء، إذ أن الفراغ مفهوم فلسفي يعني غياب المادة، وغياب الكائن. وانقلب الوضع بدايةً من القرن السابع عشر مع الثورة العلمية وتوصلوا حديثا، مع التجارب، إلى مناقشة "طاقة الفراغ"..

ويقول علم الفيزياء حاليا أن الفراغ يحتوي على حقول كهربائية ومغناطيسية. بل أن الفراغ الكمّي ملئ بالجزيئات التي يمكن رؤيتها مجهريا. فالفراغ ملئ بذرّات لا تُري بالعين، إلا أن داخلها مليء بحقول قوي كهربائية ومغناطيسية. كما أثبتت العلوم الحديثة أن كل شيء في الكون عبارة عن طاقة. وهذه الطاقات المتعددة دائمة الوجود وتتحرك وتتشابك وتتصل فيما بينها وتتجاذب. وأننا جميعا مترابطون فيما بيننا ومع كل شيء آخر في الكون، أي إن الفراغ غير موجود علميا.

وفي ستينيات القرن العشرين توصلوا إلى أن النباتات تسمع وتستجيب للصوت، وتشعر بالألم. كما أنها تتعارف، وتبكي أو تموت لموت صاحبها، كما تشعر بالفرح عند اقتراب من زَرَعها أو من يعتني بها.

وتوضح لنا النظرية الكمية وجزء كبير من التجارب المؤيدة تخبرنا بأن شيئا ما غير محسوب ولا تفسير له يربط الأشياء المنفصلة فيما بينها. ولو عرفوا وفهموا معني الحُبُك لأدركوا الكثير مما لا يجدون له تفسيرا. فلجأت إلى القرآن الكريم، إلى كتاب الله لأفهم معني آية {**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**} من منطلق القاعدة الإسلامية حول مخلوقات الله سبحانه وتعالي، فجميعها تتشابه لكنها لا تتماثل. لأن خلق الله يتشابه قانونا لكنه لا يتماثل. وقواعد الخلق العامة واحدة.

وقد يبدو عنوان البحث غريبا للوهلة الأولي، لكن لو تأملنا كلمة "**الحُبُك**" بمختلف تفاصيلها وتنويعاتها ومختلف ما تشير اليه حتى من الناحية الغيبية، المغيّبة عنّا لكنها موجودة، بما أن الآية توردها في السماء، وكل ما يدار في السماء والسماوات مغيّب عنا، لأدركنا أهمية ومعني قول الله سبحانه وتعالي لوصفه السماء بأنها {**ذات الحُبُك**}. أي إن هذه الكلمة بمختلف معانيها يقينية المعني في القرآن الكريم. وتتضمن هذه العبارة العديد من المعاني المتعلقة بالسماوات السبع التي نعلم يقينا أنه تم تشييدها بغير عَمَد نراها. فالأعمدة موجودة بالفعل لرفع هذه السماوات السبع وكل ما تحمله من أثقال، وأن الحُبُك تربط ما بينها وبين ما حولها بإحكام شديد. فالبناء أو المبني لكي يستقيم لا بد وأن يكون مرفوعا على أعمدة ودعامات تمسكه لكي يتحمل ما يضاف إليه من تفاصيل البنيان وإلا ينهار. والحُبُك بكل أو بمختلف معانيها تعني ما يضاف إلى منظومة العَمَد التي لا نراها، سواء عليها وبداخلها أو فيما حولها لتثبيت إحكامها مع كل ما تحمله..

وأول ما يلفت النظر في هذه العبارة، أو في كلمة "الحُبُك" تحديدا، مع مراعاة كل ما يمكن أن يحيط بها من معان أو من احتمالات نجهلها، فهي في صيغة الجمع. وذلك يعني، منطقيا، أن هناك أنواع متعددة بل وأنواع مختلفة من الحُبُك. ذلك أننا نعلم من القرآن الكريم، أن السماء الدنيا هي الأقرب لنا، وهي المتعلقة بشؤن الأرض، وأنها في نفس الوقت هي سقف لنا. ومنطقيا من الطبيعي أن تكون هناك أنواع مختلفة من الحُبُك تربط السماء/السقف بالأرض بما ومَن عليها..

ولو تأملنا ما يرد في القواميس العربية من معاني لكلمة الحُبُك لخرجنا بمفهوم واضح لاتساع معانيها وتنوعه، فمنها: إحكام صنع النسيج، الربط والشد المحكم، التخطيط وعمل خطوط مختلفة اللون في النسيج، الحزام وشدّه بإحكام حول الخصر، الرداء وشده حول الوسط بإحكام، الإتقان بعناية ورشاقة، الترابط، شد النسيج أو لف الشيء به كنوع من التغليف، تحبيك نسج خيوط القماش، النسج بإحكام، تعاريج الشعر الأجعد، خطوط وتعاريج ترسمها السحب والنجوم في السماء ليتم ربطها فيما بينها وحولها، التعاريج المتقطعة التي تتركها الرياح علي سطح الرمال الممتدة أو علي سطح الماء، خطوط اختلاف درجات اللون علي ريش الطيور، نسيج الدرع الصدري من حلقات معدنية رفيعة كان يرتديها المحاربون قديما، جلوس الملك واحتباك الديوان من حوله. كما

أن عبارة حبَكَهُ بالسيف تعني ضرب عنقه.. وجميع هذه الأوصاف يدخل في معناها أساسا الإحكام، التماسك، والدقة في العمل وخاصة: إتمام عمل ما أولا، ثم حبكه.

ولو تأملنا كل هذه الأوصاف إجمالا لخرجنا بأنها تتضمن أساسا معني إجادة صنع الشيء بإتقان، وحسن تدبيره. أو على حد قول ابن الأعرابي: "إن كل شيء قد أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته". كل شيء.. إلا أن مجمل هذه المعاني لا يتضمن كل المجالات أو دلالاتها، خاصة لو نظرنا من وجهة نظر الآية ومعانيها: {**والسماء ذات الحُبُك**}. وهو القَسَم الذي أقسمه المولي سبحانه لندرك منه أهمية هذه الحُبُك وأن مجالاتها متعددة من نفس أوصافها. فلو تأملنا هذه الآية في نطاق مضمونها المرتبط بالقرآن والكون، الذي أوجده المولي عز وجل، لانتقلنا إلى مجال الغيب العلمي والي كل ما هو مغيّب عنّا ولم ندركه بعد. فالتأمّل، والتفكّر، والتدبّر، من الأوامر المتكررة الصادرة للإنسان في القرآن الكريم..

ولو تأملنا كل هذه الأوصاف وغيرها كثير، لوجدنا أن جميعها يعتمد على الفعل/الحركة والإنجاز المتقن أولا. أي الاعتماد على عمل ما يتم أولا، ثم تأتي بعده عملية إحكامه وتحبيكه بما حوله لتكتمل العملية اعتمادا على الحَبْك الشديد الدقة كما سنري. وبالتالي فهي تأخذ أيضا معني الربط بين العمل ودقته، والعمل والغرض منه، والصلة بين العمل وصانعه، وخاصة الصلة المتواصلة بينهما. الصلة المتواصلة بإحكام بين الفاعل وما فعل. وهنا يستوجب الأمر توضيح العبارة من منطلق القرآن لتصبح ان ذلك يعني: صلة متصلة متواصلة بين الله سبحانه وتعالي وبين كل ما خلق وأبدع في الكون.

وتتعدد معاني الحُبُك كما رأينا، فمنها المفهوم أو الذي يمكننا إدراكه، ومنها ما ينتمي قطعا الي عالم الغيب. أي انها صلة موجودة، قائمة فعلا، لكننا لا نراها، وإن كنا نري نتيجة فعلها. ولو حاولنا اختصارها في عدة كلمات لوجدنا أن الخطوط تكون ممتدة أو متقطعة، لكنها تتسم دوما بالدقة والإتقان، بالإحكام والترابط فيما بينها ومع ما حولها، والالتفاف حول مركز ما أو الانطلاق منه. وجميعها أوصاف تتضافر لتعطينا فكرة عن معني الحُبُك إجمالا، وأهمها أن الحُبُك تتضمن

معني الوصل والتواصل، والدقة المتناهية، سواء بالمعني المحدد لها او المغيّب عنا، سواء في مختلف أجهزة أجسامنا، وفيما بيننا كأفراد، وبين كل ما حولنا، أو فيما بيننا وبين الله سبحانه وتعالي، وفيما بين السماوات أو بين السماء/السقف والأرض.

كما تدلنا هذه الكلمات على ان السماء والسماوات تتكون من أنسجة وأنظمة تكوينية متعددة، وأن التركيب النسيجي المتعدد والمتنوع موجود بها وبين كافة المخلوقات، كلاً منها وفقا لأدائه الوظيفي في الحياة. فجميعها تتشابه فكرة وعملا لكنها لا تتماثل، لأن خلق الله يتشابه قانونا لكنه لا يتماثل، وقواعد الخلق العامة واحدة. ويكفينا مثال تفرّد بصمة إصبع الإبهام لدي الإنسان. فالحُبُك موجودة في السماء وفي السماوات، مثلما هي موجودة بين السماء والأرض، وموجودة بيننا كأفراد، وبين كل جزء من الأعضاء المكونة للجسم، مثلما هي موجودة في كل ما على هذه الأرض، كما هي موجودة بيننا وبين خالق السماوات والأرض. فهي النسيج الكلّي الذي يجعل دنيانا، مثلما يجعل الكون بأسره، متماسكا كالبنيان المرصوص، المرفوع على عَمَد لا نراها والمتماسك بحُبُك لا نعرف عنها شيئا تقريبا. أي أنها موجودة في وبين كل شيء في الكون وبين خالقه عز وجل.

وبخلاف كلمة الحُبُك، وهي أساس هذا البحث، هناك كلمتان أخريان تشيران خاصة إلى ترابط الإنسان وأخيه الإنسان، وأهمية تعلقهم بالله عز وجل، وهما: الحَبْل، والعُروة الوثقي. وكلاهما من أسماء القرآن الكريم التي يصل عددها الي خمس وخمسون اسما. وعلي عكس كلمة الحُبُك التي لا ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وكل معانيها وأوصافها تدل على الإحكام والترابط بأنواعه وعلى الحركة أو العمل أولا، سواء أكان ذلك في خطوط ممتدة، متقطعة أو متموّجة، وجميعها توجد وتدور في الكون بأسره وبين كل ما به من خلق ومخلوقات، فإن كلمة "الحَبْل" ترد خمس مرات وتتضمن أيضا المعنيان: الغيبي والمادي، الذي نطالعه بمعناه الحرفي في آية {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} ﴿٥/ المسد﴾.

فالحبل، كاسم من أسماء القرآن، وجميعنا يدرك معني أن نتمسك به وبكل ما أكرمنا به المولي عز وجل من تعليمات وتوجيهات وعبادات بمختلف معانيها العامة او المتعلقة بمجال الغيب. ففي لغة

العرب إن كلمة "الحبل" تتصرف على عدة وجوه منها: الرباط، ما يُربط أو يشد ويوثق به، كما يعني التواصل والوصال، ومنها العهد والأمان. والحبال من معانيها غير الجمع هي العهود والمواثيق. وأجمل وأشمل ما يوضح لنا معني الحبل هو ما ينصحنا به الله سبحانه وتعالي {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}: فالاعتصام بحبل الله يعني ترك الفرقة واتّباع القرآن بكل تعاليمه وتوجيهاته. وشدة التمسك بالدين تعني الثبات والاستقامة. وإن كانت هذه الآية موجهة لعموم المسلين، فهناك آية أكثر تخصيصا فهي متعلقة بالإنسان وربه سبحانه: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}! فهي خاصة بكل إنسان تحديدا وتأكيدا لمدي قرب الله عز وجل منه شخصيا، ومدي ارتباط الإنسان بالله بحبيكة ممتدة، حبيكة ارتباط اعتصاما وتمسكا حبّا وأملا..

أما كلمة "العُرْوة" فمن معانيها في لسان العرب: مقبض الدلو، ومقبض الكوز، وعروة القميص، وما يبقي من شجر ولا يسقط ورقه في الشتاء. و"العروة الوثقي" هي النفيس من المال كالفرس، وما يُمسك منه أو به كطوق النجاة. أي ان معاني العُروة مادية ملموسة وغيبية. ولا ترد هذه الكلمة في القرآن إلا مرتان، وفي كلاهما نجدها مقرونة بكلمة "الوثقي"، أي المحبوكة، لتحديد معناها الأساس من الثقة والوثاق: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّـهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّـهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} ﴿٢٥٦/ البقرة﴾، أي أنها لا تنفصل أبداً. والمضمون هنا متعلق بالكفر والشرك بالله. وهي الآية التالية مباشرة لآية الكرسي التي تشرح لنا بعضا من صفات الله سبحانه وتعالي. أما الآية الأخرى فهي: {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّـهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّـهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} ﴿٢٢/ لقمان﴾. وهنا نراها مشروطة بالإحسان بأوسع معانيه. أي الالتزام بتعاليم القرآن الكريم كدستور حياة في كل مجالاتها.

فالاعتصام بالقرآن والإيمان بالله تماما، ونحن محسنون، يعني الاستمساك بحبل العروة الوثقي ـ وكأنها نوع مختلف من أنواع الحُبُك التي تربطنا بالله وتعاليمه لكيلا نتوه في غياهب الدنيا. لأنها أكثر ما تكون قربا من الثقة والأمن والأمان، وأكثر ما يمكننا التمسك به كطاقة وقيمة موثوق بها

ولا يُعلي عليها. فالعروة الوثقي هي أكثر ما يمكننا الاعتماد عليه، والثقة فيها، خاصة وأنها اسم من أسماء القرآن الكريم.

وفي الآيتين التاليتين نطالع نقطتين، إحداهما متعلقة بتسمية القرآن "روحا"، والأخرى عن السراط المستقيم. وتقول الآية: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّـهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّـهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣/ الشورى ﴾ فالآية الأولي تثبت أن المقصود في الآية المعروفة باسم "آية الروح" {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }﴿٨٥/ الإسراء﴾ تعني القرآن لأن القرآن فيه إحياء للبشر بإتّباع تعاليمه. وأن هذا القرآن الذي تحمّل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام مسؤولية تبليغه للبشر، يهدي إلى سراط مستقيم، وأن هذا السراط المستقيم هو سراط الله الذي نتمسك ونتعلق به لنتقرب إلي الله سبحانه وتعالي بكل ما به من تعاليم ومعلومات وتوجيهات، وكأنه الحبيكة الكبرى التي تربطنا بالسراط المستقيم.

وردت كلمة القرآن" 58 مرة ككتاب أنزله المولي عز وجل. وخمس مرات يصفه المولي سبحانه بأنه: العظيم، المبين، الحكيم، المجيد، وكريم. ومرة واحدة وصفه الجان بأنه "قرآن عجبا". وخمس مرات يؤكد فيها ربنا سبحانه وتعالي ويصفه بأنه قرآناً عربياً. وهو ما يشير أولا إلى أهمية كونه باللغة العربية، وإلى أن هذه اللغة عليها أن تسود لتوحيد الأمة وتوحيد البشر. فلو تذكرنا أيام كان الإسلام في قمة انتشاره كان الملوك في الغرب وعُلية القوم يدرسون اللغة العربية على أنها لغة العلوم والثقافة، لغة الحضارة والتحضر، ولم يوقف انتشارها وانتشار الإسلام ليسود العالم إلا الخيانة وسوء الاختيار..

ولو تأملنا اختصارا معاني هذه الأوصاف لرأينا إن **"العظيم"** من صفات الله، الذي جاوز قدره وجل عن حدود العقول، فلا نتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته. وعظمة الله سبحانه وتعالي لا تُكيّف ولا تُحد ولا تُمثّل بشيء. فهو عظيم بلا كيفية ولا تحديد. أنه الطاقة العظمي التي أوجدت كل

شيء. أما كلمة **مبين/ المبين**، فأتت مرة في سورة **"يس""** {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾}. أي أنه إنذار وتوجيه للأحياء كما أنه يسري علي الكافرين. ومرة في بداية سورة **"النمل"**: {طس ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾}. وهي تقريبا بداية سورة **"البقرة"** التي تنص على الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقنا الله سبحانه وتعالي من فضله.

و**"الحكيم"** من أسماء الله جل في علاه، فهو أحكم الحاكمين، وهو الحكيم وله الحكم ذو الحكمة. والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم لأنه صاحب الحكمة. وفي الحديث في صفة القرآن نطالع: "وهو الذكر الحكيم"، أي الحاكم لكم وعليكم. فهو المُحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب. و**"المجيد"** هو اسم من أسماء الله عز وجل. وفي التنزيل {ذو العرش المجيد}. وفي أسماء الله الماجد والمجد، وتعني الشرف الواسع: {بل هو قرآن مجيد}. ووُصف القرآن بالمَجَادة. وهو قرآن رب مجيد. فهو الرفيع، الكريم.

والمجيد صفة من صفات العرش. وعند اقترانها بالقرآن تعني القرآن الرفيع، العالي. وحين يشترك العرش بكل أبعاده التي لا يمكن لعقل أن يستوعبها، ووصف القرآن الكريم وبالله عز وجل، فذلك يؤكد أن هناك رسالة من رب العالمين نغفلها أو أغفلناها في حق القرآن الذي من الواضح أنه لا بد وأن يسود العالم، وإلى أي مدي نحن كمسلمين مقصرين في حق القرآن وفي حق رب العالمين.

و**"الكريم"** أيضا صفة من صفات الله عز وجل ومن أسمائه. وهو الكثير الخير الجوّاد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه. فهو الكريم المطلق، والكريم الجامع لأنواع الخير والفضائل. فالكريم اسم جامع لكل ما يحمد، فالله عز وجل حميد الفعال ورب العرش الكريم العظيم.

أما **"قرآنٌ عجبا"** التي أتت على لسان أحد الجان، فهي من العَجَب. وإن أسند إلي الله فليس معناه من الله كمعناه من العباد. والعجب تعني النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد. وأمر عجب: على المبالغة والتفرد.

ويقول العلماء اليوم في الغرب، أن كل ما نراه في الكون لا يتجاوز 4 % من حجمه، والباقي هو مادة مظلمة نسبتها 22 %، وطاقة مظلمة بنسبة 74 %. والعجيب أنهم اكتشفوا أن المادة المظلمة تتوزع على نسيج محكم أيضا، وأنها هي التي تربط المجرات بعضها ببعض، عبر جسور كونية، وهذه الجسور ما هي إلا خيوط أيضا.

وهناك أشكال مختلفة للطاقة، منها الطاقة الكيميائية، والكهربائية، والحرارية، وطاقة الجاذبية، وطاقة الضوء، وطاقة الحركة أو الطاقة النووية. وملخص ما وصل إليه العلماء اليوم هو أن الكون مليء بالمادة المظلمة، وتخترق هذه المادة خيوط دقيقة جدا، ويلتقي بعضها ببعض في أماكن تشبه العقد. وشكل هذه الخيوط يشبه النسيج، وقد تم حَبْك هذه الخيوط بدقة متناهية..

إن هذا المنظر الذي يراه العلماء اليوم هو ما لخصته الآية الكريمة بكل دقة في كلمة واحدة: "الحُبُك".. غير أن هذه الكلمة لا تعبّر عما في السماء وحدها من نسيج مُحكم، لكنها ترمز الي كل ما يربط بين مختلف مكونات الكون والدنيا، ما بها وما عليها، ويربط ما بين السماوات والأرض، بل ويربط ما بين كل ما فيها من مخلوقات وكائنات بالسماوات السبع وما بعدها.. فالفراغ لا وجود له على الإطلاق.

الفصل الأول

العرش والكرسي

لكي ندرك بوضوح معني كلا من العرش والكرسي في القرآن لا بد من تناولهما على حدة أولا، ثم يمكننا الوصول الي رؤية أكثر شمولا وترابطا. وأبدأ بالعرش منطقيا فهو الأساس. ولكي نتصور معناهما في القرآن، علينا أولا ان نتـأمل معناهما في حياتنا الدنيا. فالعرش هو ما يجلس عليه الملك ممثلا لأعلي سلطة في الدولة، أو في عدة دول، كما كان الوضع في الإمبراطوريات قديما. وندرك منها عدد أفراد الشعب أو الشعوب التي تلتف حول هذا الحاكم وترتبط به بمختلف أنواع الحُبُك المادية والمعنوية. والكرسي هو ما يضع الملك عليه قدميه ليتمكن من الجلوس على العرش في وضع مريح. فالعرش إذن هو رمز المملكة بكلها، وهو رمز لمجموع ما في الكون، ما نعرفه عنه وما لم نصل اليه بعد وما تتم إضافته خلقا وامتدادا، بما أن الله جل في علاه يقول بوضوح: {وإنا له لموسعون}.. والكرسي هو مجرد رمز لجزئية الأرض والسماوات السبع التي تعلوها وتحيط بها. ولكل منهما، العرش والكرسي، كيانه ومجاله الخاص واتساعه وترابطه بمختلف أنواع وأشكال الحُبُك.

العرش

لقد وردت كلمة العرش في القرآن 21 مرة مفردة، ومرة منسوبة الي الله: {**عرشه**}، وخمس مرات إشارة الي ملكة سبأ والي سيدنا يوسف. وجميعها مقصود بها العرش بالتصور الكلّي، أي ان الذي يجلس عليه يمثل أعلي سلطة في ذلك المجال. وتدل جميع الآيات على ان العرش في المجال الديني، مثله مثل كل شيء آخر في الوجود، فهو مربوب، أي خاضع لرب العزة كسائر

المخلوقات، وأنه أعلاها شأنا. وقد استوي الله علي العرش بعد أن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام. والاستواء هنا بمعني السيطرة التامة عليه والتحكم فيه تماما. والعرش أثقل المخلوقات بداهة، إذ أنه يضم ويحتوي على كل شيء في الوجود، بما فيها الأرض والسماوات السبع التي تدخل في نطاق الكرسي، وترتبط بالعرش بمختلف أنواع الحُبُك التي تناسبها وتحبكها.

وكلمة العرش لغة تعني، بخلاف المعني الأساس لها: البيت، وسقف البيت، والبنيان، والمنزل، وما يستظل به، والبناء الذي يكون على فم البئر. وقد وردت بعض هذه المعاني في سياق نص القرآن الكريم.

والعرش ظله فوق كافة المخلوقات، أي أنه يستظلها ويحتوي على كل ما يوجد فيما نطلق عليه الكون فرضا، أي ذلك الجزء المعروف منه بالنسبة لنا أوما لم نكتشفه بعد. ولو تتبعنا الثلاث آيات التي وردت بها عبارة الاستواء على العرش، لأدركنا اختصارا شديدا لبداية منظومة الخلق، وهي:

1 - {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّـهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّـهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ﴿٥٤/ الأعراف﴾،

2 - {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّـهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} ﴿٣/ يونس﴾،

3 - {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} ﴿٧/هود﴾.

وهو ما يكشف عن مدي أهمية العمل أولا، ثم عن مدي تقارب مجال الغيب في القرآن ومعني إعادة التجسد وحياتنا الحالية.

ولو تأملنا ما ورد في هذه الآيات الثلاثة، وقمنا بتلخيص عملية الخلق استنادا إلى ما جاء فيها للاحظنا ان العرش كان على الماء قبل السماوات والأرض، وأن هناك ثلاثة مستويات لغوية في تناولها: يستخدم الله فعل الخلق لما يتعلق بالسماوات والأرض، أي أحدثها بعدما لم تكن موجودة؛

ويستخدم أفعال أخري للتدبير من قبيل فَعَل وأنْشأ للمخلوقات التي في السماوات والأرض، وأفعال غيرها للتسخير، وخطواتها كما يلي افتراضا:

ربنا فتق كتلة السماوات عن كتلة الأرض أولا، وخلق السماوات السبع والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء. ثم خلق الأرض في يومين والسماوات في أربعة، ورفعها بغير عمد نراها. ثم استوي على العرش، أي سيطر عليه ليدبر شئون ما خلق. فسخر الشمس والقمر كلٌ يجري لأجل مسمي. يغشي الليل النهار والشمس والقمر والنجوم. يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، فهو يُخرج الخبأ في السماوات والأرض، ويعلم ما نُخفي وما نُعلن. ويدبر الأمر ويفصل الآيات لعلنا نوقن بلقاء ربنا، رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. فهو سبحانه وتعالي لم يخلقنا عبثا وإليه سوف نُرجع، وما من شفيع لنا إلا من بعد إذنه بناءً على عملنا.

فلقد خلق السماوات والأرض ليبلونا أيّنا أحسن عملا لأننا مبعوثون من بعد الموت للحساب. فهو جل في علاه {يبدأ الخلق ويعيده}.. وهي عبارة تكررت تسع مرات في القرآن الكريم، علّنا نفهم معناها الجلل، وهو إعادة التجسد لنرقي ونتقدم كروح، كجزء من نور الله (72 سورة ص)، مهما كان نورنا قطعا لا يقاس ولا يقارن. وقد تناولت هذا الموضوع في بحث "**الغيب في القرآن**"..

أي إن الآية الأولي تتحدث عن ان الليل يسعي بهمّة للحاق بالنهار، وهي الدورة اليومية أو حبيكة من الحبائك الدوّارة، وان الشمس والقمر والنجوم مسخرة بأمره لأداء عملها؛ والآية الثانية تتحدث عن أنه جل في علاه يدبر الأمر، وأن الشفاعة بإذنه، وعلينا عبادته، وهنا ننتقل إلى نوع من الحُبُك المباشرة أو ذات الخطوط المستقيمة بيننا وبين الله سبحانه وتعالي. ثم تنتهي الآية بسؤال موجه لنا جميعا: ألا نتذكر؟

فلقد رتب الله سبحانه وتعالي تفاصيل دورة هذه المكونات من حياة وموت، بما ان الآية تضمنت العبادة والحساب. والتساؤل هنا، في هذه الآية الثانية تحديدا: ينقلنا به المولي عز وجل الي مجال آخر من الغيب وكأننا كنا حاضرين عملية الخلق ولا نتذكرها، أو لعلها تشير إلى تجسدات سابقة

ولا نتذكر منها شيئا. والآية الثالثة تتحدث عن أنه سبحانه وتعالي خلق كل ذلك ليبلونا ويري أيّنا أحسن عملا، وأننا لن نعقل فكرة البَعث بعد الموت وسنعتبرها سحر مبين.. وكأن هذه الآيات الثلاثة تلخص لنا عملية الخلق وترتيبها وما واكبها وتطورها عند استوائه سبحانه على العرش.

فبعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام وامتلك زمام العرش وانتظمت دورة الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وجميعها مسخّرة بأمره، راح سبحانه وتعالي يتدبّر الأمر. ونطالع أنه ليس لنا من شفيع إلا الله، والشفاعة لا تكون إلا حين مراجعة أو محاسبة لإصدار حكم ما، وأنه علينا أن نعبده. وفي ثالث آية ندرك أنه جلّ في علاه، خلق ذلك ليبلونا ويري أيّنا أحسن عملا.

وكأن العمل هو المقياس والمقارنة للمحاسبة، فالبلاء من الله موجود في كل ما يرسله لنا من شر أو خير، مثلما نطالع في سورة الأنبياء: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} ﴿٣٥/الأنبياء﴾، وكلاهما، الشر والخير ومختلف مغرياتهما اختبار لنا، لصبرنا ولحسن أو لسوء اختياراتنا وتصرفاتنا. أي ان كل ما نمر به من تجارب ومحن في الدنيا هو امتحان لنا قبل أن تتم إعادتنا اليه سبحانه. فالرجوع بأمره ولا يدٌ لنا فيه. وهو ما يوضح أهمية العمل، وخاصة أهمية الاختيار، وان عملنا واختياراتنا سيحددان مصيرنا بعد الموت والبعث للحساب. وكل هذه الجزئيات تبدو قائمة على حُبُك متقطعة داخل حُبُك أكبر وأوسع..

ومع احاطتنا علما ببداية الخلق يوضح لنا الله أنه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها اعتمادا على حُبُك ممتدة فيما بين السماء والأرض. والعروج هو الارتفاع في خط منحني. والإنحناء هنا دليل على كروية السماوات والأرض في إطارها العام، ما نعرفه عنها وما زلنا نجهله. كما يوضحه لنا رب العزة: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ}. مثلما يحيطنا علما بأنه عز وجل معنا أينما كنّا وأنه بصير بما نعمل (4 الحديد)، والعديد من الآيات توضح لنا ذلك وتكشف عن مختلف أنواع الحُبُك التي تصلنا بالله سبحانه وتصل السماوات بالأرض وتصلنا ببعضنا بعضا..

ولو اختصرنا المراحل المختلفة لبداية الخلق لوجدنا ان خلق السماوات والأرض قد تم في المرحلة الأولي، مرحلة الخلق، وسوّاهن بعد أن سوّي السماء الأولية ودحي الأرض. ثم سوّي السماوات السبع، فاستقلت كل سماء عن الأخرى وأصبحت السماء الدنيا التي تحيط بالأرض هي السماء الأقرب اليها. وقد أوحي ربي الي كل سماء أمرها. وهو ما يوضح أن كل سماء لها محتوي مختلف عما في الأرض وسماؤها، وأن كلا منها لها دور ومهام تقوم بها، مثلها مثل باقي السماوات الأخرى المرفوعة جميعها بغير عَمَد نراها..

وتتكشف لنا المعلومات تدريجيا عبر آيات العرش. فبعد أن رفع السماوات بغير عَمَد نراها، أي أن هناك يقينا أعمدة أو دعامات لا نراها، لذلك حدد الله سبحانه وتعالي كلمة "الحُبُك"، ترفع السماوات وتمسكها كالبنيان المرصوص. وقد سخر الشمس والقمر، كلاً منها يجري لأجل مسمي، وراح يفصّل لنا المعجزات والآيات علّنا نؤمن إلى درجة اليقين بلقاء ربنا. وكأنه سبحانه تعالي، وهو يخلقنا، يعلم كم سنبعد عن الغاية التي خلقنا من أجلها، وتفاصيلها واردة في القرآن بوضوح، وكَمْ سنتوه في مغريات الدنيا ومنحنياتها. لكنه يحذّرنا في نفس الوقت أنه ليس لدينا من دونه من وليّ ولا شفيع.

والمدهش اللافت للنظر هنا، في الآيات التي تتحدث عن العرش وبداية الخلق، أو حتى تلك التي يرد فيها ذكر العرش، يكشف لنا المولي فيها أن أهم خطأ يقع فيه البشر، هو قضية تأليه بعض الأشخاص أو واحدا منهم! فيوجز رب العزة مختلف عمليات التأليه التي توالت أو تواكبت على مر التاريخ في مختلف الحضارات، في آيات واضحة:

1 ـ {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} ﴿٤٢/ الإسراء﴾، والآلهة هنا بالجمع؛

2 ـ {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّـهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّـهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} ﴿٢٢/ الأنبياء﴾، ومعني الفساد هنا ينعكس على السماوات والأرض، فالسماوات مجال والأرض مجال آخر؛

3 ـ {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا} ﴿٩٣/ مريم﴾.

و**"مَن"** هنا تحديدا تعود على كل المخلوقات العاقلة في السماوات والأرض وان كلا منها آتي الرحمن عبدا متعبدا. واللافت للنظر أن تأتي هذه الآية تحديدا في سورة "مريم".

ويعجب المولي عز وجل من هؤلاء القوم الذين لا يهتدون ولا يسجدون لله الذي يُخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما نُخفي وما نُعلن، ويؤكد لنا أنه لا إله إلا هو رب العرش العظيم، رب كل ذلك الكون الذي لا يمكن لبشر ان يتخّيل أبعاده ولا كل ما يحتوي عليه.. فيذكرنا ببعض النعم التي أكرمنا بها:

1 ـ {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}،

2 ـ {وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}،

3 ـ {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ﴿78- 80 المؤمنون﴾.

ولو تساءل البشر لمن الأرض ومن فيها، ومَن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجار عليه، لأدركوا ما يؤكده المولي بكل وضوح: {مَا اتَّخَذَ اللَّـهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّـهِ عَمَّا يَصِفُونَ} ﴿٩١/ المؤمنون﴾. لذلك نطالع بكل وضوح فداحة ذلك الخطأ في آية توضح معني الشرك بالله، وقد تكرر نصها. والآيتان في سورة النساء: ـ {إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا} ﴿٤٨﴾، وتكررت بنفس النص في الآية 160.

وقبل أن نغادر جزئية خلق السماوات والأرض، تجدر الإشارة ـ وفقا لما هو وارد في القرآن الكريم، أن القرآن كان موجودا قبل خلقها، أي قبل خلق السماوات والأرض. إذ نطالع في سورة **"التوبة"**: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّـهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّـهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}

(آية 36). ولو انتقلنا إلى سورة **"الرحمن"** نطالع في بدايتها: {الرَّحمَنُ/ علّم القُران/ خَلَقَ الإنسان/ علمه البيان} (1 - 4). وجميعنا نعلم أهمية ترتيب الكلمات في الآية وتأثيرها في فهم المعني.

ثم يُقسم المولي جلّ في علاه بالقرآن في سورة **"الزخرف"**: {حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾}. وقد وردت عبارة "أمّ الكتاب" في ثلاث آيات أخري:

* {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} (الآية..، 7/ آل عمران)،

* {يَمْحُو اللَّـهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (39/ الرعد)،

* {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} (4/ الزخرف).

وكأن القرآن، كتاب الله، هو الحبيكة الكبرى التي أسس بها وعليها سبحانه السماوات والأرض، وتفرعت منها العَمَد التي ترفع السماوات ولا نراها.. وتتنوع الحُبُك وتتشعب، فالقرآن هو الذي ينظم الدنيا، وهو الحبل الذي نعتصم به، وهو العروة الوثقي التي نتمسك بها، والسراط المستقيم الذي نتبعه ونسير على تعاليمه للوصول إلى رعاية الله. لذلك حدد ربنا سبحانه وتعالي ان أكبر جريمة يمكن للبشر أن يرتكبونها هي أن يجعلوا له شريكٌ في الملك أو ولدا..

لمحة علمية

تتواصل الأبحاث في الغرب خاصة بغية مزيد من الفهم لهذا الكون الشاسع الممتد، فقد أعلن موقع **"مستقبليات"** (Futurisme.com) يوم 2019/8/7 أن علماء الفلك في جامعة طوكيو قد اكتشفوا مجموعة مكونة من 39 مجرة ضخمة قديمة. وبذلك سيمكنهم فهْم كل شيء من ميلاد العالم إلى طبيعة تكوين المادة السوداء. وهي أول مرة يتم فيها اكتشاف مثل هذا العدد من المجرات طوال المليونين سنة الأخيرة من ال 13.7 مليون سنة التي يقولون إنها تمثل عمر الكون! علما بأن

الأرض ضمن مجرة التبانة! وتتواصل الأبحاث لفهم كل ما تحتوي عليه السماوات والأرض، {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّـهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّـهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} ﴿٢٢/ الأنبياء﴾.

وهناك ثلاث آيات ترد فيها كلمة العرش لكنها متعلقة بيوم القيامة وبمن يحملون العرش ومن يطوفون حوله. واللافت للنظر أن ترتيبها متطابق التسلسل تقريبا في ترتيب النزول وفي ترتيب المصحف. ففي ترتيب النزول سورة "**الزمر**" و"**غافر**" و"**الحاقة**" تحمل أرقام 59 و60 و78؛ وفي ترتيب المصحف أرقامها 39 و40 و69. وهو ما يدل على انه متطابق لا اختلاف فيه من حيث المعني: ففي يوم القيامة تكون الأرض جميعها في قبضة رب العالمين والسماوات مطويات بيمينه وتتوالى الأحداث المتعلقة بالحساب والجنة والنار {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ﴿٧٥/ الزمر﴾،

والملائكة التي تدور حول العرش ليست وحدها فهناك من يحملونه وكلاهما، {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} (7 غافر). وجميعهم يدورون في حُبُك دوارة كالرحاه.. ففي ذلك اليوم الذي ستُدك فيه الأرض والجبال وتنشق السماء وهي واهية، يوم العرض، سيكون المَلَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (17/ الحاقة).

وإن أمكن إيجاز كل ما تقدم حول كلمة العرش لرأينا أنها تتضمن معني نشأة الكون، والإشارة الي أكبر خطأ يرتكبه البشر بتأليه عددا أو واحدا منهم، وخاصة أن ينسبوا لله ولدا. الأمر الذي تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدا.. وتنتهي هذه المجموعة من الآيات التي ترد فيها كلمة "**العرش**" بما سيحدث يوم القيامة، يوم تحف الملائكة حول العرش ويسبّحون هم ومَن يحملون العرش، راجين المولي عز وجل أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله ليقيهم عذاب النار.

أي ان هذه الآيات قد قدمت لنا موجزا شديدا عن نشأة الكون وعن نهايته يوم العرض، وعن أكبر خطأ يقع فيه البشر عبر تطورهم في حضارات متتالية مختلفة، أن ينسبوا لله عز وجل ولداً..

الكرســـي

ترد كلمة الكرسي في القرآن الكريم مرتان: إحداهما بالمعني الدنيوي: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} ﴿٣٤/ ص﴾، والأخرى في الآية رقم 255 بسورة **"البقرة"**، والمعروفة باسم **"آية الكرسي"**. ولو تأملنا هذه الآية بدقة لرأينا أن كل مقطع بها يعود إلي الله والي أحد أهم صفاته وكأنها حبائك متداخلة تربط بين رب العزة وبعض أهم صفاته:

{ألله:
(الله): لا إله إلا هو الحيّ القيوم،
(الله): لا تأخذه سنة ولا نوم،
(الله): له ما في السماوات وما في الأرض،
(ألله): من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه،
(ألله): يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم،
(الله): ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء،
(الله): وسع كرسيّه السماوات والأرض،
(ألله): ولا يؤده حفظهما
(ألله): وهو العلي العظيم}.

ويعتبرها المفسرون أعظم آية في القرآن لأنها تدل على الألوهية المطلقة وعلى التوحيد المطلق. كما تعتبر القاعدة الأساسية للدين لأنها تبدأ بلفظ الجلالة وتنتهي بصفته العظيم. وتعني في لسان العرب "الذي جاوز قدره وجلّ عن حدود العقول حتى لا نتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته"..

وإضافة الي هذا الإيجاز فقد اختلف المفسرون في تعريف كلمة الكرسي، فقال البعض ومنهم ابن عباس، أنه العلم. وقال ابن عطاء ما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في أرض فلاة. أما الزجاج فقال: الذي نعرفه عن الكرسي في اللغة الشيء الذي يعتمد عليه ويُجلس عليه، وهذا يدل على أن الكرسي عظيم دونه السماوات والأرض. وقال قوم: كرسيه: قدرته التي أمسك بها السماوات والأرض، إلا أن في جملته يرمز الي شيء عظيم من أمر الله. وقال أبو عمرو عن ثعلب: الكرسي ما تعرفه العرب من كراسي الملوك. أما عمّار الذهبي عن ابن عباس فقال: ان الكرسي موضع القدمين. وهو المعني الذي تواصل حتى أيامنا عن ارتباط الكرسي بالعرش.. وكأن هناك حبيكة كبري تصلهما.

وما أكثر ما كُتب في شرح وتفسير هذه الآية الكريمة، وتكفي الإشارة هنا الي أنها تتضمن خمسة أسماء من أسماء الله الحسني: الله، الحيّ، القيوم، العليّ، العظيم. واسما الحيّ والقيوم معا مذكوران ثلاث مرات في القرآن: في سورة **"البقرة"** و **"آل عمران"** و **"طه"**. وعظمة آية الكرسي في وصف قدرات الله لا تقابلها في القرآن إلا آية وصف نوره عز وجل في سورة **"النور"**: {اللَّـهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّـهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّـهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ﴿٣٥﴾ .

ويمكن القول اختصارا ان أهم ما نخرج به من الآيات التي يرد بها ذكر العرش والكرسي أنها توضح لنا نشأة السماوات والأرض من بداية الخلق حتى طيّ السماوات، وأنها تتضمن إشارة واضحة إلي أكبر خطأ وقع فيه البشر في مختلف حضاراتهم هو تأليه عدة أفراد أو فردا واحدا من بينهم، وخاصة افتراض أن لله ولد. وهو ما حدث فعلا عبر الحضارات المتتالية بنفس ترتيب التحذير. والملاحظة الأخرى وجود بعض مقاطع من آية الكرسي، موزعة عبر نَص القرآن، وكأنها دعامات له تمتد كالحُبك المتينة وتسري في نسيجه لتربط بين أجزائه وتعود بنا إلى مكانة الكرسي.

لمحة علمية

تناولت فيما تقدم عبارتا العرش والكرسي وما نخرج به من معلومات من القرآن. ومن المنطقي أن نرفق بهما نبذة علمية شديدة الاختصار عن ذلك الكون الشاسع بالمقاييس العلمية علها تعاون على اضافة تفسير لنص القرآن. ففي 25 مارس 2019 عثر علماء الفلك علي أكبر مجموعة نجمية في الكون، وحددوا عمر العناقيد النجمية القديمة في درب التبانة، الذي تقع فيه أرضنا، ووجدوا أنها تبلغ من العمر 12.8 مليار سنة. وهو ما يجعلها أقدم مجموعات النجوم على الإطلاق، وتقع هذه المجموعة في منطقة انتفاخ المجرة، وتبعد عن الأرض بمسافة 21500 سنة ضوئية. والسنة الضوئية سرعتها 300 ألف كم/ثانية، وذلك في جميع الأطر المرجعية. مما يؤدي الي ان سرعة الضوء هي الحد الأقصى للسرعة في الكون.

وفي 2019/8/7 اكتشف علماء جامعة طوكيو مجموعة مكونة من 39 مجرة ضخمة قديمة ستمكنهم من فهم كل شيء من ميلاد العالم الي طبيعة تكوين المادة السوداء. وهي أول مرة يتم فيها اكتشاف مثل هذا العدد من المجرات طوال المليونين سنة الأخيرة من ال 13.7 مليون سنة التي تمثل عمر الكون، كما يقولون. كما تم اكتشاف ثقب أسود فائق الكتلة في وسط مجرة أكثر ثقلا من الشمس أربعين مليار مرة.

وفي اكتشاف علمي لوكالة ناسا يوضح ان الكون يحمل أكثر من الفين مليون مجرة، وكل مجرة بها مائة مليار نجمة. وتتواصل الأبحاث لفهم ما لا يمكن لعقل بشري أن يتخيله، وقد فسّره القرآن الكريم ببساطة اعجازية في بضع آيات: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ﴿٣٣/ الأنبياء﴾. وهو ما لخصه المولي عز وجل في خمس كلمات: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}

﴿٤٧/ الذاريات﴾. وبأيد هنا تعني: بشدة وبإحكام بفضل الحُبك المتنوعة الأشكال والأغراض، التي تمسك وتربط فيما بين مختلف أجزاء الكون.

السـماوات والأرض:

الـمـــــاء

كان العرش على الماء حين خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ليبتلينا ويري أيّنا أحسن عملا. فالابتلاء من الله في الشر والخير لاختبار ردود أفعالنا التي سيتم تقييمنا ومحاسبتنا بمقتضاها. وكانت السماوات والأرض ملتصقة ففتقهما وجعل من الماء كل شيء حيّ. ومن هنا ندرك ان الماء مرتبط ارتباطا شديدا بالحياة وأنه لا حياة علي الأرض بدون الماء، وكأنه حبيكة من الحُبُك الأساسية التي تربط ما بين السماوات والأرض.

وقد خلق السماوات والأرض وما بينها في ستة أيام. خلق سبع سماوات طباقا ما نري فيهن من تفاوت، وفصل فيما بينها وثبتها بعمد لا نراها، وجعل فيهن الشمس سراجا وجعل القمر نورا {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ﴿٤٠/ يس﴾. وسخّر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وسوّي السماوات السبع ثم سوّي السماء الأولي، الأقرب الي الأرض. ثم دحي الأرض. وقد أثبت العلم أن الأرض ليست كروية تماما وإنما هي أشبه ما تكون كالبيضة. ولا يزال أهل الصعيد في مصر يطلقون علي البيض كلمة "الدحّ"..

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام في سورة **"نوح"** وسورة **"المعارج"**: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّـهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} ﴿16﴾. أي أن لفظة "فيهن" تؤكد أن نفس نسق الإضاءة بالشمس والقمر ينير السماوات السبع.. وفي سورة **"المعارج"** نطالع: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾}. أي ان المولي سبحانه وتعالي

يؤكد لنا بوضوح أن السماوات السبع، تضاء بنفس الشمس والقمر اللذان يضيئان سماؤنا التي هي السماء الأولي، أو السماء/السقف التي تعلو الأرض التي نعيش عليها.

كما جعل في الأرض رواسي من فوقها، هي جبال شامخة لتثبيت سطحها واستقرارها لكيلا تميد بنا. وجعل بين هذه الجبال طرقا واسعة. وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ثم استوي الي السماء وهي دخان، وجعل السماء الدنيا الأقرب الي الأرض سقفا محفوظا. والسقف هو كل ما يمنع رؤية ما فوقه أو أعلي منه ويرمز للحد الأقصى في ارتفاع شيء ما. وكل سماء لها سقف يحجبها عن السماء التي فوقها. وكل ما خلقه المولي وسخره له فَلَك خاص يسبح فيه وجميعها مرتبط متماسك بمختلف أنواع الحُبُك.

والفَلَك هو الشيء المستدير الكروي كحديدة الرحي. فالفلك في كلام العرب هو كل شيء دائر، وأصل الكلمة من الدوران، ومنها فلكة المغزل لاستدارتها. وقال بن تيمية: "الأفلاك مستديرة بالكتاب والسنّة والإجماع"، وخاصة قوله تعالي: {وكلٌ في فَلَك يسبحون}..

وفي بداية الخلق كانت الأرض كالحة هامدة. والهمدة هي السكتة، والهميد لغة هو الموت. أي كأنها كانت قحطاء كالحة مسوّدة لا نبات فيها وقد أهمدها القحط. إلا أنها في نفس الوقت كانت تبدو خاشعة وكأنها ساجدة تصلي، كمن ينتظر الإنقاذ ويستجدي يد العون.. فالخشوع لغة قريب من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن، أما الخشوع ففي البدن والصوت والبصر. وكأن الأرض في انتظارها للغيث في خشوع، كانت أشبه ما تكون بالكائن الحيّ، وإذا ما أُنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل نوع بهيج! وهو ما يحدث مع كافة المخلوقات، بتفاصيل مختلفة، فنظام الكون والخليقة واحد.

فالأرض مددها الله وألقي فيها رواسي وأنبت فيها من كل نوع بهيج وكل حبّ يدّخر لقوت الإنسان. وفتح الله أبواب السماء بماء منهمر فأحيا به الأرض بعد موتها، وراح يصب الماء صباً: فتح أبواب السماء بماء منهمر، وفجّر في الأرض عيونا، فالتقي ماء السماء بمياه عيون الأرض،

وأنزل من السماء ماءً مباركا لأمر قد قدّر، قدره المولي عز وجل.. وكأن الحياة قد بدأت على الأرض بعملية تخصيب لها، بالماء المبارك، الذي أُنزل عليها من السماء وبما فجره الله منها..

وانشقت الأرض شقاً وأخرجت نبات كل شيء، وجعل الله الأرض مهدا.. فأنبتت الأرض وأخرجت جنّات وحبّ الحصيد وأنواع مختلفة من النبات.. أخرج حباً متراكباً ونخل وحدائق من أعناب وزيتون ورمان متشابها وغير متشابه، ومساحات مختلفة متجاورة وحدائق وجنّات ما كنّا مبدعيها، وزرع ونخل متشابه وغير متشابه يُسقي بماء واحد. وأخرج بالماء ثمرات مختلفة الالوان. ان الله يسوق الماء الي الأرض القحطاء فيخرج منها الأنعام والبشر، وماء أسلكه ينابيع ثم يُخرج به زرع مختلف ألوانه. فكل حياة علي الأرض تبدأ بالماء، والماء هو القاسم المشترك الأعظم الذي يربط بين كافة الكائنات والمخلوقات وكأنه نوع آخر من الحُبُك كالتي في السماء.

وتتواصل عملية الإنبات.. نبات الأرض، مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وتألقت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، يأتيها أمر الله ويجعلها حصيدا كأنها لم تغن بالأمس، فلا مجال هنا لتعاظم الانسان.. فهي هنا رمز لدورة الحياة.. لأن الحياة الدنيا ستنتهي كماء اختلط به نبات الأرض ويصبح هشيما تذروه الرياح..

ولقد وردت كلمة الماء في القرآن 23 مرة بمعان مختلفة تماما، وبلفظ الغيث والمطر والوابل. وهي: الماء المغيض ؛ والماء الصديد ؛ وماء المُهل ؛ وماء الأرض ؛ والماء الطهور ؛ وماء الشرب ؛ والماء الأجاج ؛ والماء المهين ؛ والماء غير الآسن ؛ والماء الحميم ؛ والماء المبارك ؛ والماء المنهمر ؛ والماء المسكوب ؛ والماء الغور ؛ والماء المعين ؛ والماء الغدق ؛ والماء الفرات؛ والماء الثجاج ؛ والماء الدافق ؛ وماء مديّن ؛ والماء السراب ؛ وماء الأنهار والينابيع ؛ والماء السلسبيل. وقد أوردت أسمائها لندرك مدي تنوع إمكانيات الخلق وتعددها بما ان كل شيء قد تم خلقه من ماء..

ويغطي الماء 70 % من مساحة الكرة الأرضية كما يكوّن 70 % من جسم الإنسان. وقطرة الماء الواحدة تحتوي على ملايين الجزيئات المكوَنة كلا منها من ذرتين هيدروچين وذرة أكسوچين.

والأكسوچين غاز يساعد على الاشتعال ويكوّن حوالي 20 % من الهواء الجوّي. وهو ضروري لتنفس الكائنات الحية ويدخل في التركيب العضوي لجميع الأحياء مع الهيدروچين والكربون وكأنها حُبُك أخري تربط فيما بينها..

ويمكن القول إن الماء بمختلف أنواعه ووظائفه وتداخله يمثل نوع من الترابط المتماسك بين جميع الأحياء والمخلوقات. أي أنه أشبه ما يكون بالحُبُك التي تربط السماوات وتمسكها بإحكام. فتبدو وكأنها حبال الله التي يعتصم بها كافة مخلوقاته بما في ذاتها وفيما بين أجزائها ومع ما حولها. فالكون، بأوسع معانيه عبارة عن بناء واحد شديد التماسك بفضل مختلف أنواع هذه الحُبُك المتعددة التكوين والشكل واللون، لكنها في ترابط تام أشبه ما يكون بالبنيان المرصوص، البيضاوي الشكل، المتماسك امتدادا. فالكون يتسع امتدادا على الإطلاق بقول خالقه {وإنّا له لموسعون}. لأن البناء محدود بالحيّز الذي بُني فيه، ولا يمكن توسعته أفقيا إلا بالهدم، وبالتالي فلا تكون توسعة المبني/الكون إلا امتدادا بفضل الحبك التي تمسكها بغير عمد واضحة.

تكوين السماوات والأرض

يحدد لنا القرآن الكريم أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففصلهما. أي فصل كتلة السماء عن كتلة الأرض، ثم خلق ما في الأرض جميعا في أربعة أيام: جعل فيها جبالا شاهقة تضغط على سطحها لتثبيته كالحُبُك، وجعل بينها طرقا واسعة، وسلك لنا فيها سبلا.. والجبال أشكال وألوان مختلفة، فمنها بيض وحُمر متعددة الألوان والدرجات، وتعاريج سود. كما دحي الأرض، بسطها ومدّها وأعطاها شكلها الذي يسمح لنا بالعيش عليها.

وأنزل الله من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج به نبات كل شيء، وأخرج أنواع شتي. وبث فيها من كل دابة وصرّف الرياح والسحاب المسخّر لفائدة الأرض وكل ما ومَن بها أو عليها. وأخرج بهذا الماء أنواع من نباتات متعددة وأنبت حدائق ذات بهجة ما كان لنا أن ننبت جمال شكلها وأشجارها.. وسخّر لنا الفُلك لتجري في البحر والأنهار بأمره.

وبعد أن خلق ما في الأرض جميعا استوي إلى السماء وسوّاهن سبع سماوات في يومين (1- 4 طه)، وأوحي الي كل سماء أمرها. وترد عبارة "سبع سماوات" في القرآن سبع مرات، وإن كانت بتنويعات لها معناها. فوردت عبارة "سبع سماوات"، أي عددا خمس مرات، و"السماوات السبع" إجمالا مرتان، ومرة واحدة "سبع شداد"، تعبيرا عن شدة تماسكها وقوة ترابطها بالحُبُك التي لا نراها، ومرة واحدة "سبع طرائق". والطرائق تعني أنها بعضها فوق بعض وأن كل سماء طريقة ومجال مختلف في حد ذاته. أي أن الله سبحانه وتعالي جعل السماوات سبع طبقات، وجعل القمر فيهن نورا منعكسا وجعل الشمس سراجا مشعّا.

ولعل كونها سبع سماوات طبقات فوق بعضها يفسر عبارة "المشارق والمغارب"، بمعني ان كل سماء تشرق فيها الشمس وتغرب عنها في وقت مختلف على التوالي بما أنهن طبقات، ويكون العروج اليها في مستويات ومسافات متفاوتة أيضا.

وقد خلق ربي طبقات هذه السماوات بغير عَمَد نراها وبناها بناء محكماً. فرفع سمكها وسوّاها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها (30 النازعات). أي أن كل سماء من هذه السماوات السبع لها أمر وكيان ومجال يختلف عن السماوات الأخرى. وجميعها مترابط متماسك بأعمدة لا نعرفها ولا نراها تربط بينها تلك الحُبُك المتعددة. وزيّن السماء الدنيا، الأقرب لنا أي الأقرب الي الأرض، بزينة الكواكب وبمصابيح وحفظا. وتتوقف الآية عند كلمة "وحفظا"، ولا نعرف مما أو ممن حفظها. كما زينها للناظرين بزينة الكواكب وجعل فيها بروجا وسراجا وقمرا منيرا. وجعل سقفها محفوظا. أي سقف هذه السماء الدنيا التي ننظر إليها من أسفل، من على سطح الأرض. وهي ذاتها لها سقف يفصلها عما فوقها من سماوات، وهي نفسها أيضا، أي السماء الدنيا، سقف لنا.

والله سبحانه وتعالي يمسكها، يمسك هذه السماء الدنيا أن تقع على الأرض إلا بإذنه. وذلك يعني أن مسألة وقوعها وارد إن أمَرَها سبحانه وأذن لها أن تقع. وأرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته، وما أعظمها رحمة.. فالرياح مثلها مثل كل شيء آخر خلقه الله مسخّر بين السماء والأرض لأداء

دور محدد تقوم به لصالح الحياة على الأرض. فكل شيء في الخليقة مترابط بنوع من الحُبُك وعلى صلة بعضه ببعض حتى وإن كنّا لا نري هذه الروابط ولا كيفية اتصالها وتواصلها. فما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ولها دور تؤديه.

وبعد خلق السماوات والأرض استوي رب العزة علي العرش، أي سيطر عليه تماما ليدبر الأمر. فهو يعلم سبحانه ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، فهو معنا أينما كنّا وبصير بما نعمل.. والسماء بكلها تأخذ معني المطلق الغيبي الذي يرسل الله من خلاله مختلف الظواهر والمعجزات التي يرسلها لقوم يتفكرون ويسمعون ويعقلون، وللعالمين.. فقد أنزل عز وجل من السماء ماءً طهورا أخرج به كل الثمرات، وأرسل الرياح لواقح، وأنزل من السماء، من جبال فيها، بَرَدا. أي نوع من أنواع حبيبات الثلج الخفيف، يصيب به من يشاء ويصرفه عن مَن يشاء، لأن بعض جبال السحاب التي بها برد يكاد سنا برقها يذهب الأبصار.. كما يرسل من السماء رجزا لمن بدّل القول، أي لمن بدّل نص الكتاب الذي أُرسل لهم، ويرسل عليهم صيّب فيه رعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت. ويرسل السماء عليهم مدرارا ويجعل الأنهار تجري من تحتهم وكأنها تجرفهم لتكتسحهم فيهلكوا بذنوبهم وينشئ من بعدهم قوما آخرين. كما ينزّل من السماء ماءً ليطهرنا به ويذهب عنا رجز الشيطان ليربط على قلوبنا ويثبت به اقدامنا.

ويوم تأتي السماء بدخان مبين، يوم تمور يوم القيامة ستكون السماء سائلة كحثالة الزيت والجبال كالصوف المنفوش الذي تذريه الرياح، وتسيّر الجبال سيرا وكأنها سراب.. ففي ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام وينزّل الله الملائكة تنزيلا حقيقيا.. وتُكشط السماء وتنفطر، وتتناثر الكواكب وتتفجر البحار وتتبعثر القبور وينزاح قوما.. يزيحهم الله لعصيانهم ليورثها لقوم آخرين.. يزيحهم فعلا ولا تبكي عليهم السماء والأرض فقد لاقوا ما يستحقون..

ولعل ما يرد في هذه الصور الخاطفة المتداخلة في نسيج نص القرآن كالحُبُك، هي إشارة إلى ما حدث ويحدث عند إزاحة حضارة ما لتفسح مكانا لحضارة غيرها بعد أن طغت وابتعدت عن تعاليم رب العالمين..

ونطالع في سورة **"الطارق"** عبارة لم يصل إليها العلم بعد، إذ تقول الآية: {اللَّـهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّـهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} ﴿١٢﴾. فهل هذه الأراضي متداخلة أم متجاورة أم كلاهما، بعضها متداخل والبعض الآخر متجاور؟ إن مغارة "هانج صون دوونج" (Hang S'on Doong)، التي تم العثور عليها في فيتنام سنة 2016، تتضمن ـ وهي التي تحت الماء، غابة بكر، ونهرا، وشلال مياه وبعض القردة. ويرتفع قبوها 240 مترا ويمتد طولها تحت الماء عدة كيلومترات. وهناك عشرون مغارة أخري تم اكتشافها تحت سطح الماء في فيتنام أيضا.

كما نلحظ في نقطة لافتة للنظر في الجزئية المتعلقة بالشيطان: عندما قضي ربنا سبع سماوات في يومين، وأوحي إلى كل سماء أمرها، وزيّن السماء الدنيا، زيّنها {بمصابيح وحفظا} (12 **فصلت**). ولم يزد سبحانه وتعالي.. لم يوضح حفظا من ماذا أو حتى لماذا. إلا أننا نطالع في سورة **"الحجر"**: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾}. ونجد في سورة **"الملك"**: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} ﴿٥﴾. أما في سورة **"الجن"** فنجد على لسان أحدهما توضيحا لما بدا مضغما: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّـهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّـهُ أَحَدًا ﴿٧﴾}.

ولو تأملنا بداية سورة **"الجن"** لرأينا أنهم كانوا يستمعون إلى قرآن عجبا يُتلي في السماء: {يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا/ وأنه تعالي جَد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولد/ وأنه كان

يقول سفيهنا علي الله شططا/ وأنّا ظننّا أن لن تقول الإنس والجن علي الله كذبا/ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا/ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا} (2- 7). أي أن أحد سفهاء الجن قد شط في القول وأقنع بعض الإنس الذين على صلة بهم ليقولوا علي الله كذباً. وتمت خديعة تأليه السيد المسيح والشرك بالله سبحانه وتعالي..

والمعروف والثابت فعلا أن أحد أنظمة الكنسية الكاثوليكية يؤمن بالشيطان المدعو "لوسيفير" (Lucifer)، الذي يتحكم في كنائس الغرب. وهو أعلي مكانة من الشيطان العادي وتقيم الكنيسة له قداسا سنويا، يشارك فيه البابا. وهناك فريق من المسيحيين يدعي رسميا: "عبدة الشيطان". كما أن الكنيسة تضم فعلا بين هيئتها العاملة من يحمل لقب "طارد الشياطين"..

ونلاحظ نفس الإشارة الي الشيطان في قول الهدهد عن ملكة سبأ، وتأثير الشيطان في الصد عن السبيل لعدم عبادة الله سبحانه وتعالي: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّـهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} ﴿٢٤/ النمل﴾.

وما نخرج به من هذه الآيات بوضوح هو: جريمة الشرك بالله وادعاء أن له صاحبة وأن له ولد. وأن تدبير هذه الجريمة تم بين الجن والإنس، وأن هذه الجريمة هي التي حرمت الجن من الاستماع إلى القرآن في السماء. وظن الجن أنهم والإنس لن يقولا علي الله كذبا، وكذلك إنكارهما لحقيقة البعث بعد الموت. لذلك امتلأت السماء حرسا شديدا وشهبا.. فبعد أن كان الجن يمكنهم الاقتراب من السماء والاستماع إلى قرآن عجبا يُتلي، مُنعوا من هذه النعمة وأصبحت الشهب تتصدي لهم وتمنعهم من الاقتراب من السماء. وبالتالي فإنه يتعيّن على الفريقين، الإنس والحن، ألا يُشركوا بالله سبحانه وتعالي، وألا يدعو أحدا مع الله، وان الله عز وجل، عالم الغيب، لا يُظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضي من رسول.

والمنع من الاقتراب من السماء ليس قطعي على الجميع، لأننا نطالع في سورة **"الرحمن"**:

* {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ} ﴿٣٥﴾.

فمن يحاول ذلك عنوة، من الجن أو من الإنس، وخاصة بغير سلطان من الله عز وجل، تُرسل عليه شواظ من نار ونحاس، فلا ينجح ولا ينتصر.. وبخلاف الإشارة الخاطفة إلى "شواظ من نار ونحاس" وأن هذه المعادن موجودة في الكون أو في مجال ما في السماوات العلي، فهناك إشارة خاطفة إلى أن ذلك قد يكون ممكنا بسلطان من الله عز وجل.

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ}

القسم هو حلف اليمين، أي أن يستشهد الإنسان مصداقا لما يقول، وعادة ما يستشهد بأعز وأعظم ما يعرف، ولا يوجد أكبر وأعظم من القسم بالله عز وجل وبكتابه العزيز. وهو أكبر ما يمكن لإنسان أن يستشهد به. فما بالنا إذا أقسم لنا الله، جل في علاه، مصداقا لما يبلغه لنا؟ والله لم يقسم لنا بالسماء ذات الحُبُك وحدها، وإنما نطالع في نص القرآن الكريم أنه سبحانه وتعالي أقسم بالرياح، وبالسحاب، وبالسفن التي يسيّرها على سطح الماء، وبالملائكة التي تقسّم أمرا. كما أقسم بجبل الطور، وبالكتاب المسطور، وبالبيت المعمور، وبالسقف المرفوع، وبالبحر المسجور، وكأن كلا منها يمثل نوعا من أنواع الحُبُك التي تربطنا به عز وجل، أو تربط بمختلف هذه المجالات بالسقف الذي يعلو دنيانا.. وهو ما يكشف لنا كيف ان كل شيء في الدنيا وفي الكون متشابك بمختلف أنواع الحُبُك ولا انفصال بينها.

كما أقسم بالسماء ذات الحُبُك. والقسم بالحُبُك يعني، أنه سبحانه قد أقسم بأهمية هذه الأربطة والروابط المُحكمة وأهمية إحكامها، وبكل ما يربط السماوات والأرض بما وبمَن عليها، كما سوف نري طوال هذا البحث.. فأقسم بالسماء ذات البروج، وبالسماء ذات الرجع، وذات النجم الطارق. كما اقسم بالشمس وضحاها، وبالقمر إذا تلاها، وبالنهار إذا جلاّها، وبالليل إذا يغشاها. وأقسم

بالفَجر، وكأنه جل في علاه يقسم بكل ما خلقه لنا، وأن كل شيء متماسك مترابط.. وما أكثر ما أقسم به عز وجل لنقنع ونؤمن بكلامه سبحانه وتعالي، مثلما أقسم بأن الدين واقع لا محالة..

ولو تأملنا سورة **"الذاريات"**، التي ترد فيها آية الحُبُك، وهي من السور القصار نسبيا، إذ أنها تتكون من ستين آية ولا تستكمل ثلاث صفحات، نجد أنها تمثل نموذجا واضحا شاملا لمختلف معاني الحُبك المحبوكة التي تربط ما بين السماوات والأرض بكل ما بها أو عليها، ما هو ظاهر لنا وما هو مغيّب عنا. انها سورة قائمة على حركة دائبة بين السماوات والأرض ومن عليها، وبين الملائكة المتجسدة وأحد الأنبياء. وننتقل منها إلى شريحة ممتدة في التاريخ وسلسلة من الشعوب التي ولّت، وجميع أجزائها محبوكة متشابكة في امتداد متماسك الحبكة مهما اختلفت موضوعاتها. ثم رسالة مباشرة من المولي عز وجل.. رسالة يؤكد لنا فيها سبحانه وتعالي أن كل ما وعدنا به أو حذرنا منه واقع لا محالة، وان سهولة وقوعه أشبه ما تكون بإمكانية الكلام لدينا يا معشر البشر!

ففي بداية السورة أقسم الله بالرياح وبالسحاب وبالسفن وبالملائكة، قبل أن يقسم لنا بالسماء ذات الحُبُك. فالرياح تتحرك في اتجاهات مختلفة بين السماء والأرض وبامتدادها. وقد نري ردود فعلها خاصة إن كانت محمّلة بالرمال والأتربة. لكنه لا يمكننا الإمساك بالرياح أو التحكم فيها. كما نشعر بمجراها واتجاهاتها بل وبعنفها. ويمكننا مشاهدة السحاب وهو يتكون إجمالا، أو وهو يتحرك خاصة حين تدفعه الرياح، أو بينما تتلوّن تكويناته مع شروق الشمس أو غروبها، لكننا لا نستطيع الإمساك به أو حتى لمسه.. والسفن نصنعها ونتفنن في أنواعها وفي أحجامها، ونلمس كل جزء منها. وهي هنا مجال مختلف تماما عن الرياح والسحاب، مجال مادي بحت، لكنها تسير على سطح الماء برعاية الله. فمهما تقدمت الإمكانيات هناك القَدَر بل وهناك الرياح والعواصف التي لا يمكن التحكم فيها.

وليس مثال الباخرة تايتانيك ببعيد.. فقد اصطدمت بجبل ثلج رابع يوم إبحارها سنة 1912، وانقسمت نصفان رغم جبروت ضخامتها ومتانة صنعها المتفردة بالنسبة لعصرها، وغرق حوالي

1500 شخصا.. ويُحكي في قصص تاريخها الثابت المدوّن، أن إحدى السيدات الثريات سألت القبطان وهي تصعد الباخرة، وكان هو في استقبال ضيوفه من ركاب الدرجة الأولي. سألته إن كانت الباخرة متينة حقاً وتتحمّل مثل هذه الرحلة. فأجابها بكل فخر واعتزاز: "إنها متينة إلى درجة أنه حتى الله لن يقوي عليها"!

وغرقت وهي تنقصم نصفان على عمق 3843 مترا..

أما الملائكة فتنتقل بنا إلى مجال غيبي مختلف عن الرياح والسحاب أو سريان السفن على سطح الماء. إذ يمكن القول، اعتمادا على ما يرد في القرآن الكريم، أنها مخلوقات الله التي يستعين بها لتأدية مهمة ما، كمساعدة البشر، جماعة منهم أو حتى أفرادا، مثلما يحدث مع الرسل والأنبياء أو بعض الأفراد من البشر الذين ينتقيهم سبحانه وتعالي. وما أكثر وجود مثل هذه المساعدات في القرآن الكريم وفي تاريخ تكوين رسالة الإسلام وانتشارها، وخاصة في حياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، كرسول اختاره الله لتبليغها، وكل ما اقتضاه الأمر من تأهيل رسولنا الكريم نفسيا وجسديا لهذه المهمة الجليلة بل ومساعدات روحية في المعارك التي خاضها.

ثم تتوالى خمسة مشاهد وكأنها قطاعات ممتدة من الزمن والتاريخ، تربط بينها حُبُك متقطعة كخطوط الرياح على سطح الرمال أو على سطح الذاكرة.. فنلحظ حال المتقين الذين هم في جنات وعيون، لأنهم كانوا محسنين، يصلّون ويستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم. ثم تنساب سيرة الأرض بأحداثها وما بها من آيات، وأنفسنا، والسماء التي تحمل رزقنا.

ونلحظ في هذا المشهد الثاني المتعلق بالأرض وكل ما بها من معجزات ونعَم في أنفسنا وفي السماء.. ويا لها من حُبُك وروابط تتحرك في مختلف الاتجاهات لتربطنا وتصلنا بإحكام بكل ما في دنيانا وسماؤها، وكل ما نوعد به، لتجعل منّا تكوين متماسك البنيان، ليحلف المولي عز وجل بأن كل ما يعدنا به هو حق واقع مثلما نتحدث..

وفي ثالث مشهد نخرج من تفاصيل السماء والأرض لندخل في مشهد من أوضح مشاهد الغيب في القرآن، وهو الجزء المتعلق بضيفا سيدنا إبراهيم. وقد سلّما عليه وأجابهما السلام، ولم يلحظ

أنهما من الملائكة، وإن كان قد أدرك شيء ما أو أنهما غرباء. وتجسدهما كبشر بهذا الوضوح يدل على أنها من أعلي درجات التجلّي. فعادة ما يكون تجسد الروح أشبه بالدخان الكثيف. فأسرع سيدنا إبراهيم إلي ضيافتهما بالطعام. ويدور الحوار ليكشف لنا أنه على مستوى توارد الخواطر. فسيدنا إبراهيم أوجس منهما في سرّه دون أن يقول شيئا. وشعر كلا من الملاكين بما دار في ذهنه فطلبوا منه ألا يخشى شيئا، وبدأ الحوار..

ثم ننتقل إلى مشهد متعدد المواقف وكأنها شريحة من التاريخ الممتد كصحراء مترامية بكل ما عليها من حُبُك وتموجات متقطعة، لنطالع أحداث عددا من الأنبياء والشعوب، يضم سيدنا موسي وقوم عاد وثمود وقوم نوح، ليذكرنا بهم ربنا عز وجل، بكلمات معدودة، وبأهم أحداث وملامح في حياة تلك الشعوب..

ثم يعود بنا رب العزة إلي السماء ليؤكد أنه سبحانه بناها شديدة الإحكام وأنها قائمة على الامتداد والاتساع. وينتقل النص منها إلى الأرض وكيف مهدها لنا وخلق من كل شيء ثنائية الاستمرار "الذكر والأنثى"، ويحثنا على أن نتجه إلي الله. والخطاب هنا على لسان جبريل، ومنه إلى سيدنا محمد النذير المبين. ونفاجأ في خضم كل هذه الأحداث التي تدور بين السماء والأرض والخليقة، بتحذير غريب لا يتوقعه القارئ وسط مختلف أنواع كل هذه الحُبُك، وإن كنا سبق ورأيناه في أغلب الآيات المتعلقة بالعرش وبالكرسي، إذ تقول الآية: {ولا تجعلوا مع الله إلها آخرا}. وكأن فرية أو جريمة الشرك بالله هي الخطيئة الكبرى التي يمكن أن يقترفها البشر والتي تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً..

ويلي عملية الشرك بالله نصيحة من رب العزة في خطاب مباشر، من الله سبحانه وتعالي إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: ألّا يهتم بالقوم الطاغين، وإن كل ما عليه هو أن يُذكّر المؤمنين، مضيفا بوضوح: {مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ} ﴿٥٧/الذاريات﴾. لأن الله سبحانه وتعالي هو الرزاق، وهو ذو القوة المتين.. فهو العروة الوثقي التي نتعلق بها ونمسكها بشدة، والسراط المستقيم الذي نتجه إليه ونسير عليه..

المــعارج

لو تأملنا الأبعاد الشاسعة التي يحدثنا عنها القرآن الكريم لوجدنا أنه يدلنا أو يحيطنا علما بنطاق أبعاد العرش والكرسي، والسماوات السبع والأرض ـ وإن كانت هناك إشارة إلى وجود أرضين، أو سبعة أراضي، لم نتبيّن وجودها بعد، وهل هما أرضان أم سبع أراضي متجاورة أم متداخلة؟ كما يتناول القرآن الكريم الأجيال التي تعاقبت على مر تاريخنا المحدود، أي منذ جزئية خلق آدم وحواء والشيطان، وطردهم جميعا من الجنة. وذلك كإطار لحياة البشر باختصار يضغط ويختصر آلاف السنين. وإن كان التركيز يبدو فيما يتعلق بفترة الرسالات التوحيدية الثلاثة، وبعضا من الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله في الأولين. فقد أوضح سبحانه أنه حدثنا عن بعضا منهم ولم يذكر البعض الآخر. والناس عادة ما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون. فيهلكهم رب العزة ويأتي بغيرهم. كما يوضح لنا القرآن في هذه الجزئية العامة أن أكبر خطأ تقع فيه الحضارات المتعاقبة هو تأليه أحد افرادهم أو زعم أن الله سبحانه وتعالي له ولد. وتتردد أصداء هذا التحذير ويسرى في نص القرآن الكريم كحبيكة أساسية تربط بين الحضارات.

والعروج في هذه الجزئية من القرآن هو الصعود إلي أعلي، مع فارق أساسي في مجال الغيب، هو: عدم استخدام درجات السلم مثلما يصعد الإنسان بجسده ويخطو سلمة ليصعد، وإنما الصعود في المجال الغيبي أو الروحي يكون بالجسم الأثيري وكأنه كتلة واحدة تنساق انزلاقا ـ ببطء أو بسرعة، كمن ينزلق على الجليد.

وترد كلمة "يعرج" مفردة، بمعني الصعود بميل، ثلاث مرات. والعروج دائما لا يكون أبدا في خط مستقيم. لأن ما نعرفه من تناسق شديد في الكون ـ كما هو واضح من القرآن، هي استدارة مجالا الكرسي والعرش، وأن مجال الخليقة بكلها في استدارة شاسعة لا يُدرك مداها بإمكانياتنا الحالية. فالحد الأساس أو الطرف العام للخليقة هي استدارة المجال المحيط بالعرش والكرسي بداخلها. وأن هذا الحد إن أمكن القول هو في استدارة شاملة. لأن الدائرة في حد ذاتها كشكل

هندسي تسمح بانسيابية الحركة الدائرة بلا توقف في الكون. وان الخط المستقيم هو مجرد جزئية محددة محدودة من خط الاستدارة الكبرى الشاملة.

وترد كلمة "يعرج" (من العروج) مفردة ثلاث مرات: في سورة "**الحديد**"، و"**السجدة**"، و"**سبأ**". وتوضح لنا هذه الآيات ان الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها. كما أن الله يدبر الأمر من السماء الي الأرض، دون تحديد لمدة معيّنة. لكن التحديد الواضح هو ان هذا الأمر الذي يتضمن شؤون الدنيا، صادر للأرض ومتعلق بها. وهو صادر لها عن بُعد، من السماء. وبما أننا نعلم أنهم سبع سماوات وان السماء الدنيا من هذه السماوات السبع هي سقف لنا، وكأنها حدود دنيانا، فمن المنطقي أن تكون هذه السماء/السقف الخاص بالأرض، هي المجال الذي تصدر منه توجيهات شئوننا، ثم تصعد أعمالنا وشئوننا الي الله في يوم كان مقداره ألف سنة مما نعد نحن يا معشر البشر. وبالتالي تكون مدة الألف سنة هي مقياس المسافة التي تفصل بيننا وبين السماء الدنيا..

وترد كلمة المعارج بالجمع أربع مرات: في سورة "**الزخرف**" و"**الحجر**" و"**المعارج**". وفي سورة "**المعارج**" ترد مرتان: مرة في التساؤل عن وقوع العذاب للكافرين {مِّنَ اللَّـهِ ذِي الْمَعَارِجِ} ﴿٣﴾، والأخرى في الآية التالية لها: "تعرج"، إشارة الي الملائكة والروح حين يعرجون الي الله {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾. والوضع هنا مختلف عن الآيات السابقة بمعني ان الإشارة الي الله هنا بأنه "صاحب المعارج". أي ان المعارج بالجمع الذي يتضمن الحديث عن السماوات السبع كناية. فالعروج الي كل سماء منها في مستوي أعلي مختلف بما أن السماوات السبع طباق، أي طبقات فوق بعضها.

وفي الآية التالية لها نري ان الملائكة والروح تعرج اليه {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، تكون إشارة الي المسافة بين الأرض والسموات السبع، وجميعها فوق الأرض وداخل نطاق الكرسي، بدليل آية الكرسي في سورة "**البقرة**": {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿٢٥٥﴾}.

ولو تأملنا المعني المدغم لكلمة العروج بمختلف معانيها في كل هذه الآيات اجمالا وهبوط الأوامر وصعود الأعمال لرأينا أنها بمثابة نوع من الحُبُك التي تسمح وتربط وتنقل أعمالنا وشئوننا من والي السماء الدنيا المرتبطة بالأرض بحكم أنها سقفها.

وندرك من سورة **"المعارج"** مستوي أعم وأكثر شمولا. فهي تبدأ بالتساؤل حول العذاب الواقع على الكافرين والذي ليس له دافع من الله ذي المعارج. يليها سرد لأنواع العذاب، سواء المحيط بهم أو الواقع عليهم، إلا على المصلّين. ثم نطالع وصفا لهؤلاء المصلّين، وهم: الذين يداومون على الصلاة، وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، ويصدّقون بيوم الدين ومشفقون من عذاب ربهم. وهم لفروجهم حافظون، يراعون أماناتهم وعهدهم، وقائمون بشهاداتهم، ويحافظون على صلاتهم.

واللافت للنظر هنا أن يبدأ وينتهي وصف الذين لا ينالهم عذاب الكافرين وأنهم الاشخاص الذين يداومون على الصلاة ويحافظون عليها. ولو تأملنا الصلاة في حد ذاتها لوجدنا أنها اللحظات التي يكون فيها الإنسان خاشعا متعبدا لله. فالصلاة بكل فروضها التي تتواصل كسلسلة متماسكة، ليلا ونهارا، هي بالنسبة للإنسان كنبضات تنظم أوقاته، ويكون فيها مجرّدا خاشعا متعبدا أمام الله، متوجها بكل تركيز في حضرته سبحانه وتعالي. فالصلاة هنا أشبه ما تكون بحُبُك تربط الإنسان بربه، برب المشارق والمغارب التي تتوالى في طلوعها وغروبها علي السماوات السبع.

الـغَيْـب

وردت كلمة الغيب في القرآن 48 مرة بمعناها المطلق المغيّب عنا، ومرة واحدة منسوبة الي الله، بمعني "غيبه" الذي لا يعلمه إلا هو ولا يطلع عليه إلا من ارتضي من رسل. كما وردت أربع مرت بالجمع لتأكيد أن هناك أكثر من مجال للغيب، سواء أكان للسماوات السبع أو الأرض، ولتحديد أن الله وحده هو علاّم الغيوب. كما أنه عز وجل عليم بالصدور. فمثلما يعلم غيب السماوات والأرض فهو يعلم غيب الصدور أو قلوب من خلق. وتؤكد شمولية المعني أن الله وحده له غيب

السماوات والأرض واليه يرجع الأمر كله، حتى الذين هم {**مَن في السماوات والأرض**}. ومَن لغةً تستخدم لكل ما هو عاقل من المخلوقات، فالله وحده هو الذي عنده مفاتح الغيب ولا يعلمها إلا هو. الأمر الذي يوضح أن هناك مجالات متعددة من الغيوب في السماوات المتراصة طبقات وبين الأرض، وأن كل سماء من السماوات السبع لها غيبها، وكذلك الأرض لها غيب متعلق بها وبمن عليها أو فيها.

كما أن كلمة "الغيب" في تحديدها اللغوي تأخذ أكثر من معني، ومنها الإيمان بوجود الله بلا دليل ملموس. الإيمان بالغيب ـ الذي لا نعرفه، أي الإيمان الي درجة اليقين. الأمر الذي نطالعه في بداية سورة "**البقرة**". وهو فرض من أول ما فُرض علينا بما فيها الرسل والأنبياء.

واللافت للنظر أنه في العديد من هذه الآيات تأتي كلمة الغيب مقرونة بإقامة الصلاة وكأن الصلاة حبيكة من الحُبُك التي تربطنا بالله:

* {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣/ البقرة﴾}.
* {إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ..} الآية ﴿١٨/ فاطر﴾.

فالصلاة والتعبد والتمسك بتعاليم الله يعني الارتباط بتعاليمه سبحانه وتعالي كالحُبُك التي تصلنا به والتمسك بكل ما أوصانا به عز وجل.

وهناك "علم الغيب". وهذا التحديد يدل على أن هناك ملمح أو ملامح من الغيب يمكن للإنسان أن يفهمها أو أن يدرك بعضا من جوانبها بما يسمح له الله ليرقي إلى درجات من العلم والمعرفة أكثر رقيا ونورا. وهي درجة من العلم والمعرفة تسمح له باستخراج المغلقات التي يتعذر الوصول اليها. وهو ما ييسره الله من البلاغة والفصاحة والوصول الي غوامض المعاني وأُغلق على غيره أو تعذر عليه.

غير أن معرفة الغيب كما هي واردة في سورة {**سبأ**} توضح لنا أن معرفة الغيب مسبقا، قبل الأحداث، تجعل الشخص يغيّر تصرفه بناء على هذه المعرفة أو المعلومة الغيبية، وبالتالي تحرمه من تجربة الاختيار. فالاختيار هو دعامة حياتنا على الأرض، وهو ما سوف نحاسب عليه، ويحدد

موقفنا من الحياة في كل خطوة، أو هو الدعامة الاساسية التي تقوم عليها تجربتنا في الحياة الدنيا. لأننا نتعرض للاختيار في كل خطوات حياتنا. فحينما أوضح لنا الله في كتابه العزيز الفرق بين الخير والشر، بين الحلال والحرام، بين الصواب والخطأ، فهو سبحانه قد وضعنا ضمناً أمام عملية الاختيار في كل خطوة ـ حتى لو لم ندرك ذلك.

ومعرفة الغيب مسبقا أشبه ما تكون بعملية الغش في الامتحان، أي أنه يحرمنا من تجربة الاختيار في الحياة كما هو واضح في سورة **"سبأ"**. فلو كان الجن يعلم الغيب لما لبثوا في العذاب المهين. إذ عندما قضي الله الموت علي سليمان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض التي كانت تأكل منسأته. فلما خرّ تبينت الجن أنه لو كانوا يعلمون الغيب لتغيّر اختيارهم قبول طاعة سليمان، وما لبثوا في عذاب السخرة المهين. وأن يأتي الاستشهاد هنا في سورة **"الجن"**، ليوضح لنا الله ملمحا ممن يعيشون معنا منذ أن طرد أدم وحواء والشيطان من الجنة، ليعيشوا محنتهم أو رسالتهم معنا على نفس الأرض.

ومثلما رأينا في النقاط السابقة نجد هنا أيضا في الآيات المتعلقة بالغيب رفضا صريحا من الله عز وجل لعملية الشرك به أو أن يكون له ولد: {هُوَ اللَّـهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّـهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ﴿٢٣/ الحشر﴾. بل نجد في سورة **"المؤمنون"** اتهاما صريحا للمشركين بالكذب: {بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّـهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّـهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ﴿٩٢/ الممنون﴾، بل ان الله يعتبر مثل هذا القول من همزات الشيطان.

أما في سورة **"المائدة"** فنطالع تكذيبا صريحا من عيسى عليه السلام للشرك بالله أو لتأليهه: {وَإِذْ قَالَ اللَّـهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّـهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} ﴿١١٦﴾.

والثابت في إنجيل برنابا، وهو الإنجيل الذي أدانه البابا چيلاز قبل وفته سنة 496، لإخفاء ان عيسى عليه السلام قد أعلن عن مجيء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، حينما سأله أحد الأتباع إن كان هو المخلّص. فأجاب بأنه ليس المخلّص وإنما "لسوف يأتي من بعدي، الذي تقف نفسي بحضرته. أنني لست المخلّص الذي تتوقعه سائر قبائل الأرض، أنه هو الذي سوف يأتي من الجنوب بقوة وسوف يدمر الأوثان مع الوثنيين. انني لا استحق أن أحل رباط حذائه. حيث تأملون النور سوف يحل الظلام، لكن عزائي هو في قدوم رسول الله الذي سوف يدمر كل رأي زائف عني. وعقيدته سوف تنتشر وسوف تبسط سلطانها على سائر العالم، لأنه هكذا قد وعد أبانا إبراهيم. وذلك الذي يعطيني عزاء هو أن عقيدته لن تكون لها نهاية. بل سوف يحفظها الله معصومة الصفاء".

و"أجاب الكاهن: هل بعد مجيء رسول الله سوف يجيء أنبياء آخرون"؟ أجاب عيسى: "إن اسم المخلّص لبديع لأن الله ذاته هو الذي أعطا الاسم عندما خلق روحه ووضعها في سناء سماوي". قال الله: "انتظر يا محمد لأنني من أجلك سأخلق الفردوس والعالم وخلقا حاشدا كثيرا ومن ثم أجعلها هدية لك، حتى ان من يباركك سيكون مباركا، ومن يلعنك سيكون ملعونا. عندما سأرسلك الي الدنيا فلسوف أبعثك رسولا لي للنجاة، ولسوف تكون أمتك حقا حتى ان السماء والأرض ليصيبهما الوهن. لكن عقيدتك لن تفشل أبدا. محمد هو اسمه المبارك". عندئذ رفع الحشد أصواتهم عالية قائلين: "اللهم ابعث لنا رسولك. يا محمد أقبل سريعا لنجاة العالم". (تلخيص من الفصل 96 و97 من "**إنجيل برنابا**"، بحث د. أحمد غنيم).

ولو تأملنا آية 157 من سورة "**الأعراف**"، لوجدنا أنها تلخص كل ما سبق في كلمات واضحة:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

وقد أطلت في الاستشهاد من انجيل برنابا لتوضيح كيف أن عيسى عليه السلام لا ينفي كونه "إلها" فحسب، كما يزعم المحرفون، وإنما يُعلن عن مجيء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ليواصل الرسالة وكأنه امتداد لسلسلة الأنبياء والرسل لتظل حقيقة التوحيد هي الارتباط بالله عز وجل كحبيكة من الحُبُك الأساسية، رغم عمليات التحريف والتغيير التي اعترت مسيرتها عبر التاريخ. وقد تناول الشيخ عبد الأحد داود (القس دافيد بنيامين كلداني وأستاذ اللاهوت السابق) جزئية التحريف التي تمت في الأناجيل في كلمة "الفراقليط" ليتم استبعاد قول السيد المسيح بمجيء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. وتم تحريفها في الترجمة من Periqlytos الي Paraclet لاستبعاد التنبؤ بمجيء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. (راجع كتابي: **موقف الغرب من الإسلام**، حيث شرحت هذه الجزئية بالتفصيل).

ويكفيني الاستشهاد بآية سورة **"الأعراف"** فهي وحدها دليل إلهي قاطع، إذ يقول ربي:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ﴿١٥٧﴾.

الفصل الثاني

الظلمات، النور، بين السماء والأرض

يتكون هذا الفصل من ثلاث موضوعات، تتعلق بثلاث مجالات أساسية مرتبطة بالغلاف المحيط بالأرض ويربطها بالسماء/السقف الذي يعلوها. ويمكن الاستدلال من هذه المجالات رغم اختلافها، على عوالم متباينة الشكل والمضمون لكنها تفسر لنا في مجملها جزءاً مما يحيط بنا وينظم أو يتحكم في مجريات حياتنا، وهي: الظلمات، النور، وبين السماء والأرض، أوما يُطلق عليه السماء/السقف. أي السماء الأولي التي تمثل سقفا للأرض التي نعيش عليها وننظر إليها من أسفل، من على سطح الأرض.

وهذا السقف/السماء من العناصر التي تمثل أنماطا أخري من الحُبُك، التي يسبقها دوما فعل محكم من رب العالمين، وهي من الحُبُك التي تربط الأرض بمَن وما عليها بالسماء. وسواء أكانت هذه العناصر واضحة ويمكننا رؤيتها ونتعامل معها أو حتى مغيّبة عنا، فإنها تخرج دوما عن سيطرتنا، أي ليس لنا سلطان عليها. فلا يمكننا أن نحيا في نور ساطع الي ما لا نهاية، كما لا يمكننا أن نعيش في ظلام دامس مدي الحياة، مثلما لا يمكننا العيش تحت سماء لا تكف عن ضخ سيول جارفة من المطر..

1 ـ الظلامات

لقد بدأ المولي عز وجل بخلق السماوات قبل الأرض، وكانت الظلمات قبل النور، مثلما خلق الموت قبل الحياة.. كانت الظلمات تعم الكون والخروج منها يتم دوما من الظلمات الي النور في قانون رب العزة، سواء أكان هذا الخروج ماديا أو معنويا. وهو ما يمثل بداية الحركة الخلاّقة أو

تلك المسيرة الممتدة من بداية الخلق الي نهايته، من السماء الي الأرض، والعودة الي السماء في نهاية المطاف، بكل ما تحتوي عليها من حُبُك تربط ما بين مختلف المجالات. مسيرة بدأت بسلخ الليل عن النهار لتبزغ إشراقة يشع منها النور..

واستخدام عبارة "السلخ" هنا مجازية لندرك رهافتها. فهي تتضمن بطء الحركة التي تتم بها عملية السلخ ونعومتها لاستخراج النور من الظلام برهافة لا نشعر بفرق تدرجاتها إلا بتزايد درجة النور. وهي أشبه ما تكون بعملية السلخ الحقيقية، التي تعتمد على ضربات مقتضبة شديدة الحرص. حركات تتواصل متقطعة الي أن يتم سلخ جلد الذبائح بلا تلفيات. حركات تتواصل أشبه ما تكون بتلك الحُبُك المتقطعة التي ترتسم على سطح الرمال أو على سطح البحر الهادئ.. غير انها تحمل بين طياتها مولد الإصباح..

أما كلمة الظلام، فاللافت للنظر أن نجد لها الجذر "ظَ لَ مَ"، الذي منه الظلام والظُلم، يسري في نسيج القرآن بمعنييه وبتصريفات متعددة. إلا أن الظلام يعقبه النور، نور الإصباح، نور الفجر ونور النهار بأسره. كما ينبثق هذا النور على مستوى آخر هو نور العلم، ونور الإيمان والتمسك بتعاليم الله. فكثيرا ما ترد في القرآن الكريم عبارة {**من الظلمات إلي النور**} بمعان متعددة. أما الظُلم، سواء أكان ظلم النفس بالمفرد أو بالجمع، وخاصة ظلم الغير، فهو ما يعاقب عليه المولي بمختلف أنواع الحساب والعذاب. وهو ما ندركه من خلال ما يقرب من مائتين آية، توضح لنا مختلف أنواع الظلم والعذاب الذي يقع على الظالمين، على امتداد موجات حضاراتهم وتعاقبها.. فما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. القانون الإلهي واحد يسري علي الأمة كما يسري علي القرية مثلما يسري أيضا على الأفراد:

* {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ {... الآية 13/ يونس﴾،

* {وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} ﴿٥٩/ الكهف﴾،

* {وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} ﴿١٦٥/الأعراف﴾.

والظلمات أشكال وأنواع، منها ما يوجد عند انسلاخ النهار من الليل، ومنه صيّب من السماء، فبخلاف المطر الشديد فإن الصيّب هو أصل القوم والخالص من كل شيء. وكأن الأمطار والسيول التي تحجب الرؤية حُبُك تربط السماء بالأرض وتذكرنا بأن المولي سبحانه قد خلق من الماء كل شيء حيّ. كما أن نزول الماء من السماء مصحوبا بالظلمات وفيه رعد وبرق، يشير من جهة أخري إلى أن مَن في الظلمات، وخاصة المعنوية منها، لا يسمع ولا يري، بل وليس بخارج منها إلا لو غيّر من مكانه أو من فكره.

وهناك ظلمات البحر اللجي التي تتراكم فيه الأمواج طباقا بعضها فوق بعض، ويعلوها السحاب. وقد تم مؤخرا اكتشاف أنه توجد فعلا أمواج في أعماق المحيطات.. وهناك دوما إشارة ولو رهيفة تؤكد وجود النور بعد الظلام: فالأمواج المتراصة في أعماق البحر يعلوها السحاب الذي يعلوه النور..

وإن كانت هذه أنواع من الظلمات الناجمة عن احتجاب النور، فهناك العديد من الآيات التي تشير إلى الظلمات المعنوية التي يمكن للناس أن تنساق فيها. لذلك يرحمهم المولي سبحانه بإرسال نبيّ بكتاب يخرجهم من الظلمات إلي النور. وهي المهمة الملقاة على عاتق كل نبي من الأنبياء. مهمة ليست بالهينة، إذ يقوم بتوجيهها رب السماوات والأرض: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} ﴿٤٣/ الأحزاب﴾. وتتجلي رحمته عز وجل لتبليغ الرسالة في أن الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء ليستجيب لهم رب العالمين. وكأنها منظومة محبوكة تدار في رحاب الكون..

ولو تأملنا الآية التي تصف القرآن لدهشنا مما تحيطنا به علما. إذ يقول رب العزة: {الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١/ هود﴾. وهي الآية الوحيدة المتعلقة بمسمي **"القرآن"** وتصفه بأنه كتاب محكم، والآية الوحيدة من بين عشرات الآيات المشتقة من جذر "ح ك م" وتأتي بمعني الإحكام. وهو المعني الأساسي للحبيكة وللقرآن. الأمر الذي يوضح لنا أن آيات القرآن الأساس قد تم إحكامها أولا ثم تم تفصيلها وتوضيحها.. فالقرآن الكريم يمثل الحبيكة الكبرى الشديدة

الإحكام، ثم تفرعت منه حُبُك متعددة تمثل القوانين والأحكام والتوجيهات المختلفة التي يتحتم علينا إتباعها والتمسك بها. فهي العروة الوثقي التي تقودنا إلى السراط المستقيم.

ومن الغريب واللافت للنظر أن نجد في الآية التالية لها مباشرة، في نفس سورة **"هود"**، تحذيرا شديد الوضوح: {**ألا تعبدوا إلا الله**..}. وهو تحذير ينتمي إلى نفس التحذيرات التي تصاحبنا منذ البداية مع آيات العرش لتنص على عدم الشرك بالله، وعلى ألا نعبد إلا إياه، وألا نجعل له شريكا في الحكم، وخاصة ألا نختلق له ابنا:

* {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۗ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِۚ تَعَالَى اللَّـهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ﴿٦٣/ النمل﴾.

* {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّـهُۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّـهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ اللَّـهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ﴿١٦/ الرعد﴾.

* {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّـهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} ﴿٦٤/ الأنعام﴾.

وهؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى ما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. فمثلهم كمثل الذين استوقدوا نارا فلما أضاءت ما حولهم ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. ويفسر الله عز وجل معني كونهم {**لا يبصرون**} بإيجاز شيد فهُم: {**صُم بُكم عُمي**}! وكأنه سبحانه قد حرمهم من نعمة السمع ونعمة القدرة على الحديث ونعمة البصر.. أي أنه قد تم عزلهم في ظلمات أزلية.. ظلمات ثلاث، وتم حرمانهم من أهم الحُبُك التي تصلهم بمن يحيطون بهم، بل بالناس أجمعين: وهي حُبُك القدرة على السمع والتواصل، وحُبُك القدرة على الحديث، وحُبُك القدرة على الرؤية. إذ قد عزلهم المولي عز وجل في ظلمات ثلاث، لا مخرج لها أو منها، وكأنهم موتي خارج القبور، وقد أُغشيت وجوههم قطعا من ليل مظلما..

وحين خلق الله السماوات السبع طباقا، بغير عَمَد نراها، أوحي إلى كل سماء أمرها، وزيّن السماء الدنيا ببروج ومصابيح. كما أوجد الشمس والقمر، لنعلم من تعاقب دوراتها عدد السنين والحساب. فجعل القمر نورا والشمس سراجا منيرا يتناوبان الليل والنهار كأنهما عجلة رحاه. {لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون}. أي أن قانون سباحتهما قائم على السخرة والتسخير من رب العالمين. ومن هنا ندرك أن السخرة والتسخير في يد الله سبحانه هي من أهم الحُبُك التي تربط الكون..

وهنا أيضا نلحظ أن الشمس والقمر مفردتان، ويسبحون بالجمع وليس بالمثني. وكأن الآية تتضمن أن هناك أشياء أخري تسبح في ذلك الفراغ بخلاف الشمس والقمر. بل كأنها حبيكة أساس تتواصل دوراتها لتحبك دورانها وتنظيم الحياة فيما بين السماوات وبين السماء والأرض. كما سخر الشمس والقمر دائبين، كلا يجري لأجل مسمي. لا الشمس تسبق القمر ولا القمر سابق الشمس. ومثلما سخر الله الليل والنهار، سخر النجوم والكواكب والأجرام كلّ في فلك يسبحون. والسباحة هنا تؤكد لنا أنه ما من شيء يمسك هذه الكواكب والأجرام والنجوم والشمس والقمر إلا الفراغ المحيط بها، أي أن مصيرها الغرق، لولا تلك الحُبُك التي تمسكها، القائمة على التسخير الإلهي، والذي أشار إليه سبحانه وتعالي إجمالا في عبارة شاملة.

ومن اللافت للنظر أن يطلق رب العزة صفة "السراج المنير" على سيدنا محمد صلوات الله عليه وعلى الرسالة التي كلفه بها لتنظيم إيقاع حياتنا المعيشية في الدنيا والآخرة.. فالقرآن دستور حياة بمجاليها، العبادي والغيبي، إطار محكم، بل شديد الإحكام، لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا ذكرها وحدد لنا أبعادها ومقتضياتها. وكأن القرآن الكريم هو الحبيكة التنظيمية الكبرى، وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو الحبيكة التنفيذية الكبرى، يحددان معا مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا وفيما بعدها..

الليل والظلام

تجمع الآيات المتعلقة بالليل عدة موضوعات: موضوع الاستكانة والنوم، ودرجات متعددة من التعبد، والمقارنة بمن في السماوات العلا، وخاصة استنكار الشرك بالله أو أن ننسب إليه ولدا سبحانه. وهو الاستنكار الذي يكاد لا يخلو منه موضوعا من الموضوعات الأساس في القرآن الكريم، وكأنه تحذير تتردد أصداؤه في مختلف المجالات:

* {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ﴿١٠١/ الأنعام﴾،

* {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّـهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ ...} (الآية، 33 سبأ)،

* {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّـهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّـهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّـهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّـهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} ﴿٦٢/ الحج﴾.

ومن نعم الله علينا، حين بدأ خلق الكون وتنظيم الحياة، أن يخلق سبحانه الليل والنهار لينتظم إيقاع الحياة الدنيا، فحدد معيار اليوم بالليل والنهار، في إيقاع منتظم، وجعل الليل سكنا والنهار للعمل، ولنبتغي من فضله ولنعلم عدد السنين والحساب. وهي من الكلمات التي تأخذ عدة معاني لتشير إلى ارتباطها بالإنسان. فالسكون ضد الحركة. وكل ما هدأ فقد سكن كالريح والحر والمطر. وجميعها تعتمد على تصرف أو حركة دافعة تحركها، لا دخل لنا فيها ولا سلطان لنا عليها، وإنما جميعها تابعة لقدرة الله عز وجل. لكننا نرتبط بها أو يربطها المولي بنا، بتلك الحُبُك المتعددة والمتنوعة، التي تملأ ما بين السماوات والأرض، بمختلف الأشكال والأنواع، لتُحْبك كل كبيرة وصغيرة. فكل شيء في هذه الدنيا مترابط ومتماسك كالبنيان المرصوص.

ومن معاني هذا السكون المتنوع: سكن الرجل، أي سكت. وهناك ما سَكَنَ/سَكَتْ، من الناس ومن البهائم. وكل ما هو قائم على الحركة يسْكَن ويستكين. وكل شيء مات فقد سكن. وهناك المعني

المتعلق بالإنسان خاصة في المجال الدنيوي أي الإقامة، وهو: سكن بالمكان، أي يسكن ويقيم فيه. فهو ساكن من السكان. ومن أجمل المعاني التي تدخل في نسيج هذه الكلمة: كل ما سَكَنْتَ إليه واطمأننت به من أهل وأشخاص، بل وحتى من مكان وأحداث فهي عبارة: السكينة. ويا لها من عبارة تضم في جنباتها الوداعة، والوقار النفسي، ورحمة الطمأنينة والاطمئنان..

فقد جعل ربنا سبحانه وتعالي الليل لنستكين ونهدأ لننام ونستريح، لنصحو نشطين لمواصلة المسيرة. إذ أن منامنا بالليل أساسا، أو بالنهار، يعد معجزة من المعجزات التي أكرمنا بها ربي والتي لا تُعدّ ولا تُحصي. فأثناء النوم يجتبي الله الروح ولا تكون متصلة بالجسد إلا عن طريق الحبل الفضّي، بلغة الغيب، وهو ما يماثل الحبل السُرّي الذي يربط الجنين بأمه. وعند اليقظة تُرد الروح الي الجسد، إلا تلك التي قرر المولي سبحانه أن ينهي عمرها ووجودها على الأرض. وكأنه من الطبيعي أصلا أن نتوفّى بالليل ونحن نيام إلا ما شاء ربي سبحانه وتعالي.

ولو تأملنا فقط أنواع الخلايا الموجودة بالجسم، وعددها حوالي 210 خلية مختلفة، وكل خلية تقوم بعمل محدد لمساعدة العديد من أجهزة الجسم على القيام بوظيفته طوال الأربع وعشرين ساعة، على التواصل وبلا توقف، سواء أكان الشخص في حالة النوم أو اليقظة، لأدركنا معني معجزة النوم.. فالخلايا فقط ولا أقول حتى باقي الأجهزة والدورات المستقلة كالدورة الدموية أو التنفّس، لأن كل شيء خلقه الله متماسك في حد ذاته وبكل ما حوله بفضل تلك الحُبُك المحبوكة فعلا..

فهو سبحانه يتوفانا بالليل ويبعثنا في النهار لأجل مسمي. وهو الذي أنشأ لنا السمع والإبصار والأفئدة. والفؤاد هو القلب. ويا للدقة في اختيار صياغة العبارة. فالسمع والإبصار هما من الملكات والنعم التي لا تعد ولا تحصي مما أكرمنا بها رب العزة. لكننا نلحظ أن السمع والإبصار بصيغة المفرد، فملكة السمع أو ملكة الإبصار تدل على نوع واحد محدد: نسمع، ونري. انها قدرة إلهية تسمح لنا بفعل السمع وفعل البصر. وهي قدرة واحدة موجودة عند كل مخلوق، سواء أكان إنسانا، أو حيوانا.. أما الفؤاد/القلب، وهو جهاز واحد أيضا لدي كل إنسان أو مخلوق، إلا أن قدرته

وانفعالاته وحالاته المتعددة أو تقلباته النفسية التي تحرك الجسم تختلف من إنسان لإنسان كالبصمة..

فعلي الرغم من أن القلب هو المحرك الأساس للعقل ولمشاعر الإنسان بكله، مثلما نلاحظه في القرآن الكريم في العديد من الآيات، وحتى في العلوم الطبية الحديثة، إلا أن النفس ـ التي ألهمها المولي فجورها وتقواها، تؤثر على المشاعر والتصرفات بمختلف اختياراتها ووفقا لمستوي رقيها وتحضرها.

والثابت علميا أنه أثناء نومنا جميع أجهزة الجسم تعمل بانضباط خارج سيطرتنا، وفقا للبرنامج الذي خصه لها رب العزة. وهذا العمل المنضبط، لمختلف الأجهزة التي تكوّن الجسم، لا قدرة لنا على إيقاف عمله أثناء النوم بل ولا نشعر بعملها إلا عند لحظة اليقظة والاستيقاظ من النوم وندرك أن الجسم يعمل كما كان قبل النوم. ولا معني لكل هذه الدائرة الشديدة الإحكام التي يوضع فيها الجسم عند النوم، إلا أن كل جزء فيه مرتبط بعمله بفضل تلك الحُبُك التي نظمها له المولي عز وجل، وسخرها لتظل تواصل عملها بدقة متناهية بصرف النظر عن يقظتنا أو نومنا.

ومن أهم ما نطالعه في آيات الليل، كمّ التوجيهات الإلهية التي على المسلم أن يلتزم بها ليلا، كالصلاة والسجود والتسبيح وتلاوة القرآن الكريم أو ذكر اسم الله. وذلك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل، وإدبار السجود، وإدبار النجوم، وخاصة قرآن الفجر، لأنه كان مشهودا. وكذلك التهجد به جزءا من الليل. وكأن العبادة والتعبد يتواصلان ليربطا الليل بالنهار بحياة المسلم لضبط إيقاع مسيرته. وكأنها حُبُك تعبدية نظمها المولي لتجعل المسلم علي سراط مستقيم وتصله برب العالمين. وعليه أن يؤديها بحب وإيمان صادق بلا تكاسل أو تقصير.

وتتضمن هذه الآيات التي يتنوع فيها إيقاع التعبد أثناء الليل والنهار، ردا من الله لكل من قد يشكو صعوبة أدائها، أن مَنْ في السماوات والأرض ومَن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، فهم يسبحون الليل والنهار ولا يفترون ولا يسئمون:

* {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّـهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} ﴿٣٨/ فصلت﴾،

* {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} ﴿٢٠/ الأنبياء﴾،

* {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّـهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّـهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّـهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} ﴿١٨/ الحج﴾.

ومن الملاحظ أيضا في جزئية التسبيح في القرآن، أن التسبيح قد ورد بمختلف تصريفات الفعل فنجد: سبَّحَ، وسبَّحوا، في صيغة الماضي ؛ تُسَبّح، تسبّحون، تسبّحوه، نسبّح، نسبّحك، يسبّحن، يسبّحون، يسبّحونه، في صيغة المضارع ؛ سبّح، سبّحوا، سبّحْهُ، وسبّحوه، في صيغة فعل الأمر.. أي كأن التسبيح بمثابة إيقاع متواصل كنبض القلب في حياة المسلم في كل لحظاته.

كما ندرك من هذه الآيات ان هناك، في السماوات العليا مخلوقات إنسانية، أو روحية، يسبّحون بالليل والنهار وهم لا يسئمون، ولا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون..

ولو تأملنا الآيات السابقة لوجدنا أن "مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض" يسجدن لله ويسبحنه سبحانه وتعالي. ومَنْ لغةً تستخدم للعاقل، لأدركنا إن مَنْ في السماوات يندرجون تحت مسمي "العاقل" الذي هو الإنسان. فقد تكون هناك، في السماوات الأعلى، مجتمعات من بشر أكثر رقيا منّا. قد اجتازوا الصغائر المادية الدنيوية. كما قد تكون مكونة من الأنفس، وهي الجزء المتحكم في الإنسان وفي اختياراته وردود أفعاله. ذلك الجزء، النفس، التي ألهمها الله فجورها وتقواها.. فجعلها تعود في دورة حياتية أخري، في سماء أخري بعد أن تكون قد اكتسبت شيئا من الرقي، لكي تتعلم أكثر ثم ترقي في السماوات المختلفة. فالنفس هي التي تحاسب في جميع الآيات المتعلقة

بالحساب وليست الروح أو الجسد الذي يعود إلى الأرض. وقد يكون في تدرج السماوات مراحل تعليمية أرقي، فهي جزء من نور الله، وعليها أن تتقدم وترقي لتصل إلى مستوي النور الذي هي جزء منبعث من نور المولي سبحانه، كما نطالع في سورة **"ص"**.

2 ـ الشمس والنهار

مثلما يرتبط الليل بالظلام ترتبط الشمس بالنهار، ترتبط كلمتا الشمس والقمر، إحداهما كطاقة مشعّة والأخرى وصفا للنور المنعكس عليها، وترتبط كلمة الشمس بالنهار والنور مثلما يرتبط القمر بالليل والظلام. فكل ما خلقه الله وأقامه في نظام حدود اليوم مكون من الليل والنهار، وبكل ما أبدعه من أجرام وكواكب ونجوم، مترابط متماسك بمختلف أنواع الحُبُك التي أشار إليها سبحانه في آية واحدة هي: {**والسماء ذات الحُبُك**}.

آية واحدة كافية لتربط انتباهنا وفكرنا بكيفية تماسك ذلك الكون الذي لا يمكن لإنسان أن يحصى كل ما يحتوي عليه ولا كل ما به من أبعاد ومسافات تمتد وتتوسع في رحابه دون أن ينهار أو لا يختل تماسكه، بفضل تلك الحُبُك المتعددة، الشديدة التحبيك، والتي هي محكمة بدقة فائقة لصالح الإنسان وتيسيرا لمعيشته وإيقاع حياته. وذلك اعتمادا على كلمة واحدة أخري هي: **"التسخير"**. وكأن المنظومة الكونية بكلها قائمة على ميزان إلهي عادل بكفتين: كفة الحُبُك، وكافة التسخير.

ومثلما تتنوع أشكال الحُبُك وفقا لكل مجال ووفقا لكل غرض منه، فإن التسخير أيضا يتنوع وفقا لكل مجال. وإن كانت عبارة التسخير تعنى القهر والتذليل واستبعاد أية إمكانية لرفض هذا التكليف الإلهي، فهي في هذا التكليف، الإلهي، تقوم بدور إنساني، لصالح الإنسان. فالسخرة تعني لغةً: القيام بعمل بلا أجر. وكأن تنفيذ ذلك العمل سخرة هو في حد ذاته سبب وجود ذلك الكيان المسخّر أياً كان. فكل مقهور مدبّر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر. ونطالع في آية شاملة قول المولي سبحانه: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّـهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّـهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} ﴿٢٠/ لقمان﴾؟

وتسخير ما في السماوات وما في الأرض لصالح الإنسان هو الانتفاع بها في بلوغ منابتهم والاقتضاء بها في مسالكهم. ولو عدنا إلى الآية مرة أخري لوجب التوقف عند جزئية: {**ما في السماوات**}. إذ إن ذلك يعني إن ارتباط الأرض، هي وكل مَن وما عليها، مرتبط بالسماوات السبع وليس بالسماء الدنيا وحدها، والتي هي سقف للأرض، وتدار منها شئونها. كما يبدو من تسخير الله للسماوات لصالحنا، أنه يتعيّن علينا ان نصل من الرقي العلمي والديني والأخلاقي بحيث يمكننا الاتصال بمن في السماوات لنتعلم ونتعاون معا لصالح التقدم والرقي العام.

فقد سخّر لنا جل في علاه: الشمس والقمر دائبين، وسخر النجوم والليل والنهار، كما سخر البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولنأكل منه لحما طريا. كما سخر لنا الطير وكل ما في الأرض جميعا وما في السماوات. كلٌ يجري لأجل مسمي. فمثلما خلق الموت قبل الحياة، ونطالعها بوضوح في بداية سورة **"تبارك"**، فإن عبارة {إلى أجل مسمي} التي ترتبط بكل ما خلق، تحمل ضمناً معني نهاية الحياة الدنيا ووجود حياة فيما بعد، بدليل تسخير السماوات لنا، عند انتهاء الأجل المسمى، وبعد تلك التجربة التي نعيشها علي كوكب الأرض.

ولو تأملنا آية الطير لأدركنا معلومة لها مغزاها: {أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّـهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ﴿٧٩/ النحل﴾. فإن عبارة {مسخرات في جو السماء} تشير إلى أن جو السماء يبدأ من فوق سطح الأرض. فالطيور جميعها تنطلق من سطح الأرض أو حتى من سطح تل أو جبل إلى أي مكان شاءت ويمكنها الوصول اليه. حتى الدجاج، وهي من الطيور الأرضية، أي التي لا تطير لكنها في جريها قد ترتفع أحيانا قرابة نصف المتر. وهناك طيور تطير وترتفع بضعة أمتار، وهو أقصي ما يمكنها الارتفاع إليه، وما يمسكهن إلا الله. وهناك غيرها يمكنها الارتفاع إلى 11300 مترا كالنسر الأبقع المعروف باسم الروبل، نسبة إلى من اكتشفه (Ruppel's vulture)، وهو من أشرس أنواع الطيور الجارحة في العالم. وهذا الطائر قادر علي الارتفاع الي تلك المسافة التي تعجز عنها جميع الطيور الأخرى، لكنه هو أيضا ينطلق للطيران من على سطح من الأرض.

وتسخير الشمس والقمر دائبين، وجَعْل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل لم يكن مجرد تسخير وتثبيت الأجرام في أماكنها بفضل الحُبُك فحسب، وإنما أيضا ليلفت المولي نظرنا لمجال العلوم والرياضيات ونتعلم عدد السنين والحساب فهو قد سخرها سبحانه من أجل الإنسان. وكل هذه الأعمال مرتبطة مترابطة بإحكام الحُبُك التي تحكم تماسكها وانضباطها.

ومثلما تميزت آيات الليل والظلام بتوضيح مختلف العبادات التي يتعيّن على الإنسان تأديتها من صلوات ونوافل وتسبيح وتهجد، نطالع نفس التوجيه لترتبط وتتواصل العبادة من صلوات وسجود وتسبيح في آيات النهار. فتلك هي الحُبُك التعبدية التي تربط الإنسان بخالقه. بل تربط كل ما خلق ربي من بشر وكائنات بل ونباتات، إذ نطالع: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّـهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ...} ﴿١٨/ الحج﴾.

ومن أوضح المعلومات الفلكية التي نخرج بها من الآيات التي تتعلق بالسموات، سورة **"نوح"**: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّـهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} ﴿١٦﴾، إذ أن تحديد "فيهن" كحرف جر مؤنس في صيغة الجمع يؤكد أنه متعلق بالسماوات السبع. أي إن الشمس والقمر يضيئان وينوران السماوات السبع، وإن السماوات السبع يخضعن لنفس النسق الذي فرضه الله علي السماء الدنيا وعلى الأرض، لكن باختلافات تتفق والارتفاعات المتتالية. وهو ما يفسر عبارة {رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} في سورة **"المعارج"** آية 40.

وهناك آيتان في نفس هذه المنظومة، ترد فيهما فكرة السباحة **"يسبحون"** للدلالة على أن الشمس والقمر والليل والنهار كلٌ منها يسبح في فُلك خاص به، شديد الدقة. فما من واحد منها يمكنه الإفلات من ذلك الانضباط الشديد التحبيك: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ﴿٤٠/ يس﴾، {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ﴿٣٣/ الأنبياء﴾.

ولو تأملنا معني كلمة السباحة، وما بها من انضباط مرتبط بعملية السباحة نفسها، لأدركنا دقة العبارة. فهي من ناحية تشير الي وجود ذرات المياه في جو السماوات. من ناحية أخري نعلم أن المياه ترفع ما يوجد على سطحها شريطة أن يكون شديد الاستقامة. فما أن ينحني أو يُشرخ، أي أن يفقد استقامته، حتى يسقط أو يغرق في القاع!

فالثبات على الاستقامة هو شرط الاستمرار في الكون. والاستقامة تدخل ضمنا في كل ما خلقه الله وسخره. وذلك لا يعني أن الاستقامة غير مطلوبة من الإنسان، لكن بما أن الإنسان هو الكائن أو المخلوق الوحيد في كل ما خلق ربي الذي لم يفرض عليه التسخير والتحكم في انضباطه بمختلف أنواع الحُبُك وترك له حرية الاختيار، لأن الاختيار هو مقياس حياة الإنسان، فهنا تتضح أهمية الاستقامة للإنسان ودوره في الحياة والمقصود من خلقه.

ومثلما طالعنا في كل ما تقدم من نقاط حول رفض الشرك بالله أو أن ينسب له الكافرون ولدا، نطالع أيضا في هذه الجزئية المتعلقة بالليل والنهار آيات تحمل نفس الرفض والتحذير والاستنكار، ومنها:

* {وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ﴿٧٢/ آل عمران﴾؛

* {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} ﴿٣١/ سبا﴾؛

* {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ} ﴿١٣/ فاطر﴾.

ونطالع في سورة **"النمل"** آية لها مغزاها في جزئية الدور الذي لعبه الشيطان والجان في الإيحاء للنصارى بالشرك بالله: {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّـهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} ﴿٢٤﴾. ويتواصل العناد حتى لو واجههم الله بأفعالهم

وتلاعبوا وأصرّوا على ما قاموا به من تحريف في رسالة التوحيد، بل كانوا يصرون في عنادهم، {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} ﴿١٥/ يونس﴾.

وتمر السنين بل والقرون وهُم في عنادهم راسخون، بل لا يزال الفاتيكان والمشركون حتى يومنا هذا يطالبون بتغيير القرآن بآخر أو تغيير بعض قوانينه وأن يتم حذف الآيات التي تكشف وتدين كل ما قاموا به من تحريف لرسالة التوحيد بالله في نصوصهم، وجميعه ثابت في وثائقهم.

وقبل الانتقال إلى موضوع آخر من الآيات التي تؤكد وتفسر لنا معني الحُبُك في السماء/السقف، هناك آية تدفعنا إلى التأمل والتفكير في السماوات وما بعدها، مع كل ما طالعناه من حُبُك تحكم كل جزئية في هذا الكون وتربطها بمكانها وبما يوجد حولها، إذ يقول المولي عز وجل في وصف أهل الجنة:

* {مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} ﴿١٣/ الإنسان﴾،

* {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} ﴿٣٥/ الرعد﴾.

وهذا الوصف الإلهي يؤكد أن الجنة بعيدة عن أشعة الشمس وحرارتها، بل هي ليست بعيدة فحسب عن أشعة الشمس وحرارتها، لأن الله يؤكد في أربع وثلاثين آية نفس عبارة أنها {جنات تجري من تحتها الأنهار}! وهذا التأكيد الشديد يوضح لنا أن مكان الجنة يقع في منطقة بعيدة عن الشمس وحرارة أشعتها، وأن تحتها تجري أنهارا لا بد وأن تكون من نفس درجة اهتزازات الجنة وأهلها بل ونفس اهتزازات المنطقة التي هم فيها. وذلك ليس بغريب، فكل ما خلقه الله سبحانه تعالي في نطاق كرسيّه قائم ويؤدي دوره في منظومة الحياة بفضل الحُبُك التي يَحْبُك بها سبحانه ترابط وتماسك كل ما خلق. فجميع نظم مخلوقاته تتشابه لكنها لا تتماثل، لأن خلق الله كما نعلم يتشابه قانونا لكنه لا يتماثل.

3 ـ بين السماء والأرض

بين السماء والأرض حوار ممتد، مُحكم، متعدد الموضوعات والمجالات.. متواصل إلى ما شاء الله، فلا ولن يتوقف إلا إذا السماء انشقت وانفرطت، وإذا الكواكب انتثرت، والشمس كُوّرت والنجوم طُمست وانكدرت، وإذا الجبال سُيّرت فكانت سراباً، وإذا البحار فُجّرت والأرض ألقت ما فيها وحتى القبور تبعثرت.. فإلي ذلك الحين، إن كل ما أبدعه المولي وأحكم صنعه وأحبكه تحبيكا وسخره لخدمة الإنسان، فهو باق حيث هو وكيفما خلقه رب العالمين..

وتعد مساحة الغلاف الجوي، أي ما نراه فيما بين السماء والأرض بالعين المجردة، كالمسرح المكشوف. مساحتان تلتقيان عند خط الأفق، السماء والأرض، مساحة تسمح بمتابعة ما يدور بها من بعض الظواهر التي تعنينا بالعين المجردة. وذلك كالنجوم والرياح والبرق والمطر على سبيل المثال. وجميعها تربط ما بين السماء والأرض بقدرة أحكمها الله بالحُبُك التي أقسم بها وسخرها لخدمة الإنسان وتيسيرا لحياته على الأرض.

وتمشيا مع القانون الإلاهي القائل من الظلمات إلي النور، فإن أول ما يلاحظه الإنسان على صفحة السماء ليلا هي النجوم التي يهتدي بها ليعرف اتجاهه، إضافة إلى القمر وفقا لمراحل مسيرته.. واللافت للنظر أن يقسم الله بمواقع النجوم. فما من إنسان إلا وتأمل السماء ليلا ولاحظ صدفة نجم وهو يفرّ منحدرا أمامه بميل وكأنه يعدّل من وضعه أو من مساره! ويقسم المولي عز وجل بالنجم إذا هوي! يقسم مؤكدا لنا أنه قسم عظيم، يؤكد به عظمة القرآن الكريم، موضحا ان سيدنا محمد، عليه الصلاة والسلام، لم يضل ولا ينطق عن الهوى أو لأغراض دنيوية، وان ما يبلغه للبشر هو وحيّ من الله سبحانه وتعالي. وحيّ يقوم بتبليغه للبشر رسول قدير، شديد القوي، بالأفق الأعلى.

وتحديد ربنا سبحانه وتعالي للمكان الذي يوجد به هذا المَلَك الكريم بالأفق الأعلى، يشير إلى أن هناك عدة آفاق، فهي مرتبطة بالسماوات السبع وتؤكد لنا أن هناك سبعة آفاق، لكل سماء من هذه السماوات السبع أفقها الخاص بها. وهو ما تؤكده الآية 53 من سورة **"فصلت"**: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ﴿٥٣﴾. أما في سورة **"التكوير"** فنطالع وصفا لجبريل عليه السلام: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}. ولو لم يكن بهذه القدرة والمقدرة والمكانة عن الله لما تحمل تبليغ الرسالة لمدة ثلاث وعشرين عاما يظل طوالها متابعا متصلا بسيد المرسلين. وهي ظاهرة روحية متفردة. كما يؤكد ربنا سبحانه وتعالي على المستوي الروحي لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وتمتعه بملكة الجلاء البصري، إذ أنه قد راي المَلَك جبريل مرتين: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ}، ومرة عند سدرة المنتهي. وذلك بخلاف كل ما هو وارد بالقرآن من أحداث ووقائع تنتمي يقينا إلى المجال الروحي.

وبعد أن قدّم ربنا جل في علاه، الملك جبريل، وسيدنا محمد، يقدم لنا رسالة القرآن الكريم في بداية سورة **"الفرقان"**، وهو اسم من أسماء القرآن، ويعني كل ما فُرقَ بين الحق والباطل فهو فُورقان، وفارق بين الحلال والحرام. ونطالع قوله سبحانه وتعالي:

{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} (6).

والسورة بكلها تتناول رسالة التوحيد بالله وموقف الذين حادوا عنه واتخاذهم آلهة لا تخلق شيئا، بل اتهموا القرآن الكريم بالإفك وأنه مجرد أساطير، وأن الرسول مجرد بشر معتاد، يمشي ويأكل

في الأسواق كباقي البشر، بل وأنه مسحور! كما كذّبوا بالساعة وعتوا عتواً كبيراً، وطالبوا برؤية الله أو أن ينزل القرآن دفعة واحدة. كما أوضح سبحانه كيف كانوا يهزؤون من الرسول عليه الصلاة والسلام، إلا أن الله جل في علاه قد طالب رسوله قائلا: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} ﴿٥٢/الفرقان﴾، أي بالقرآن، والجهاد الكبير ضرورة لنشره. فالقرآن هو الدليل القاطع على كل ما قام به المشركون من محاربة للإسلام ورسالة التوحيد بالله، وكل الوسائل التي استخدموها في نصوصهم وسياساتهم. فالجهاد الكبير لا بد وأن يتواصل إلى أن يعمّ الإسلام.

ومثلما في بداية سورة **"الفرقان"** نطالع نفس التحذير ألا نعبد إلا الله في بداية سورة **"هود"**:

* {الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّـهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} ﴿٢﴾.

كما تحدث المولي عن النجم الطارق (The Pulsating star)، {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ} ﴿٣﴾، ذلك النجم الثاقب المتفرد بين النجوم. فالنجم الثاقب أكبر من الشمس بعدة أضعاف، ويتشكل نتيجة انفجار النجوم. فعندما ينفجر هذا النجم ويتهاوى على نفسه، تتحول مادته إلى نيوترونات.

ويقول علماء ناسا إن هذه النجوم ثقيلة جدا، وإن جزء منها بحجم قطعة السكر تزن مائة مليون طن، أي وزن جبل من الجبال. ولنا أن نتخيل حجم الحُبُك التي تحمل مثل هذا النجم، أو ما الذي كان سيحدث لو أن أحد هذه النجوم الثاقبة قد سقط على الأرض! فلولا تلك الحُبُك التي أشار الله إلي وجودها في السماء، وأقسم بها وبمكانتها، لهَوَت هذه النجوم على الأرض بحكم وزنها المهول.. وعندما قام المولي بإطلاق مسمى "الثاقب" على هذه النجوم فإن هذه التسمية لم تكن جزافية وإنما في غاية الدقة إذ يستخدمها اليوم علماء ناسا.

كما يقول العلماء اليوم إن كل ما نراه لا يتجاوز 4 % من حجم الكون، والباقي هو مادة مظلمة نسبتها 22 %، وطاقة مظلمة بنسبة 74 %. والعجيب أنهم اكتشفوا أن المادة المظلمة تتوزع على نسيج محكم أيضا، فالمادة المظلمة هي التي تربط المجرات بعضها ببعض عبر جسور كونية،

وهذه الجسور ما هي إلا خيوط أيضا. وملخص ما وصل إليه العلماء اليوم هو أن الكون مليء بالمادة المظلمة وتخترق هذه المادة خيوط دقيقة جداً، يلتقي بعضها ببعض في أماكن تشبه العُقد، وشكل هذه الخيوط يشبه النسيج. وقد تم حَبْك هذه الخيوط بدقة شديدة. وهذا المنظر الذي يراه العلماء اليوم ما هو إلا مضمون معني كلمة "الحُبُك".. سبحان الله.

وبعد أن أقسم الله بمكانة هذا النجم الثاقب وقدرته الفائقة، أشار المولي إلى الإنسان وضحالة تكوينه، وكيف يقوم بعض البشر بتدبير المكائد لوقف مسيرة الإسلام، فيقول رب العزة: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} ﴿١٧﴾..

ومثلما طالعنا أن الله سبحانه وتعالي قد خلق النجوم ليهتدي بها الناس، نطالع أن السماء بها بروجا وأنه جل في علاه قد زينها للناظرين وحفظا من كل شيطان رجيم. ومرة واحدة تأتي كلمة "البروج المشيدة" بمعني الحصون، وأنها لن تحمي أي إنسان من الموت. والبروج من الكلمات التي أقسم بها الله سبحانه وندد بأصحاب الأخدود ومما فعلوه بالمسلمين: {وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} ﴿٨﴾..

ومن أغرب التعبيرات التي يمكن أن نطالعها في الآيات التي تحدثنا عن الرياح وما تقوم به من أدوار متعلقة بحياة الإنسان نطالع: الله يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه المولي في السماء كيفما شاء: فأحيانا يجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله، وأحيانا يرسلها لواقح تنزل من السماء ماءً، وأحيانا أخري تتحكم الرياح في سير الفُلك على سطح المياه فتسير الجوار في البحر كالأعلام. كما سخرها لسليمان غُدوّها شهر ورواحها شهر، بل سخرها له تجري بأمره رخاءً حيث أصابت. وإن شاء المولي سبحانه يُسكن الريح فتتوقف حركة ما كانت تدفعه..

وسواء أكانت في حركة أم ساكنة فلولا الحُبُك التي تتحكم في تحركاتها وسكناتها لأختلف الوضع واختلفت الحياة علي كوكب الأرض. فالرياح المسخرة بأمر الله بين السماء والأرض تتصرف بأمره عز وجل. وهي أنواع متعددة، فمنها الريح العقيم والريح الصرصر العاتية، التي تحول ما

تعتريه من محاصيل الي حطام، وخاصة ما تصيب به الظالمين في العديد من الحضارات، إذ تحوّلهم إلى أعجاز نخل خاوية. وهناك ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها، وريح عاصف تعوي أينما وكيفما يوجهها سبحانه. أما أجمل تعبير مرتبط بالرياح فهو ما يصف به رب العزة الريح التي يرسلها سبحانه بشري بين يدي رحمته! ويا لها من رحمة ينزّل بها من السماء ماء طهورا.. وهناك الرياح التي يوجهها للذين كفروا وللمشركين:

* {مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} ﴿١٨﴾،

* {حُنَفَاءَ لِلَّـهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} ﴿٣١﴾،

* {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ ۚ تَعَالَى اللَّـهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ﴿٦٣﴾.

ومن أغرب وأهم ما نطالعه في الآيات المتعلقة بالرياح تلك الآية التي تؤكد أهمية المجال الغيبي في القرآن، وكيف أن الغيب، بكل وضوح، يلعب دورا أساسيا في تبليغ الرسالة وتثبيتها. إذ نطالع في سورة **"الأحزاب"** الآية 9: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}..

ولا يمكن لنص أن يكون أكثر وضوحا، وهي هنا معجزة مزدوجة المضمون. فمن ناحية أرسل المولي عز وجل ريحا تهاجم الجنود المُهاجمة للمسلمين لتعوق تحركاتهم وتصرفاتهم، وأرسل في نفس الوقت جنودا من الأرواح المجندة لتعاون المسلمين في دفاعها عن الإسلام وصد هجوم الأعداء، وهو ما سبق وأوضحته بإسهاب في كتاب **"الغيب في القرآن"**.

وفكرة الأرواح التي يجندها الله ليست بغريبة في القرآن، بدليل ما يقوله عز وجل بوضوح في العديد من الآيات، نذكر منها على سبيل المثال:

* {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} (28/ يس)؛

* {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} (١٧٣ /الصافات)؛

* {إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّـهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّـهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّـهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ﴿٤٠ /التوبة﴾؛

* {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّـهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّـهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ} ﴿ 31/ المدثر ﴾.

ومثلما سخّر الله الماء لتنمية الزراعة للحياة الدنيا فقد سخره لمعاقبة المجرمين الذين لم يؤمنوا به وبما أنزله لتثبيت رسالة التوحيد بالله. بل لقد وصل بهم الجبروت والعناد والتمسك بالشرك بالله حتى طلبوا بكل تحدّ {وَإِذْ قَالُوا اللَّـهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (32/ الأنفال). فما كان من رب العالمين إلا أن لقّن كل من تمسك بكفره في الأمم المتعاقبة درسا قاسيا:

* {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} ﴿٨٤﴾،

* {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} ﴿٨٢﴾،

* {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ} ﴿١٧٣﴾.

ومن آياته سبحانه وتعالي أنه يرينا البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال، وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها، كما يرسل من السماء صيّب فيه ظلمات ورعد وبرق فيضع الناس أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت. ويصف المولي انعكاس هذه الظواهر عليهم فيقول عز وجل: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ

الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّـهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ﴿٢٠/ البقرة﴾.

ومن أغرب ما نطالعه علميا بخلاف النجم الثاقب، في هذه الجزئية والدور الهام أو الضروري للحُبُك والذي لولاه لانهار الكون بكل ما فيه، مكان البَرَد الذي يتساقط كحبيبات من الثلج من وسط السحاب. ويتفاوت حجمه من الحبة الصغيرة إلى حجم بيضة الدجاج أحيانا. وهو ما كان يبدو من الخوارق غير المنطقية أو غير المفهومة حتى العصر الحديث حين توصل العلماء إلى أن البَرَد يتشكل في الغيوم الركامية أثناء العواصف الرعدية نتيجة تجمد قطرات المطر التي تشكل نواة لحبّة البَرَد. فتنمو عليها طبقات من الجليد. إذ يقول المولي سبحانه:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّـهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ} ﴿٤٣/ النور﴾**.** وتعد جزئية "من جبال فيها من بَرَد" من أصعب الأجزاء التي صادفت المترجمين، خاصة في الترجمات التي قام بها المستشرقين، لأنه منطقيا من الصعب تصور جبال في السماء، وخاصة جبال فيها بَرَد..

الحُبُك والقلب

للقلب أهمية خاصة في جسم الإنسان دونا عن باقي الأعضاء. فكل الآيات التي ذُكر فيها القلب في القرآن جاءت بمعني أنه عضو يقوم بوظائف معرفية كالتدبر والتفقه والتعقل والتذكر؛ أو وظائف مشاعرية كالرأفة والرحمة والقسوة والغلظة، وصولا إلى الوظائف الروحية كالإيمان والتقوى والهداية والزيغ.. وكل هذه الوظائف شديدة البُعد عما نعرفه طبيا من أن القلب مجرد مضخة عضلية تضخ الدم ليلا ونهارا، منذ بدأ القلب يعمل أثناء تخليق الجنين إلى أن يتوقف مع الوفاة.

وقد توصل العلماء حديثا الي دراسة الشبكة العصبية للقلب ويطلق عليها "مخ القلب". وشبكة الأعصاب هذه يمكن أن نطلق عليها: أنها الشبكة الموازية للحُبُك الواردة في القرآن. فجميعها تتشابه لكنهها لا تتماثل، لأن خلق الله يتشابه قانونا لكنه لا يتماثل. وقد أشرت في مكان سابق بهذا البحث أنه يكفينا مثال تفرد بصمة إصبع الإبهام لدي كل إنسان. فهذه الحُبُك موجودة في الكون وفي أنفسنا.. وهو الأمر الذي يلفت نظرنا إليه ربنا سبحانه وتعالي حين قال: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}﴿٥٣/ فصلت﴾.

ودراسة هذه الشبكة العصبية لم يتم اكتشافها إلا سنة 1991. وهي تتكون من مجموعة من العُقد وتوجد في الطبقة السطحية للقلب، وبنسبة أقل في الدهن المغلف للقلب. وتتكون كل عقدة من خلايا هذه الشبكة العصبية، وهي تشبه مثيلتها في المخ تماما، ويخرج منها ألياف عصبية تتصل بالخلايا الأخرى عن طريق تشابكات عصبية. وهو ما يسمح لنا بالربط بينها وبين الدور الذي تقوم به الحُبُك من ربط وتثبيت وإحكام وتواصل بين باقي الأعضاء المكونة للجسم وللكون.

ويتفاوت حجم هذه العُقد من خمس خلايا إلى مائتين. ويقدر عدد الخلايا العصبية بحوالي 14000 خلية، بينما ارتفع العدد في أبحاث أجدد إلى 40000 خلية عصبية داخل القلب البشري. وقد وضح أن معظم هذه الخلايا متعددة الأقطاب إضافة إلى وجود عدد من الخلايا ذات المحور الواحد أو الثنائي. وغالبية هذه الخلايا تشبه خلايا الجهاز العصبي اللا إرادي وتتصل به. وهي خلايا نشطة من ناحية التمثيل الغذائي إذ تقوم بوظائف عصبية متعددة.

واللافت للنظر أن جميع هذه الوصلات العصبية توجد بين محور خلية وشجيرة خلية أخري وليس مع جسم خلية أخري. وهو ما يتيح عدد أكبر من التشابكات بين الخلايا وزيادة عدد الدوائر العصبية. إذ أن كل خلية لها عدد من المحاور وعدد من الشجيرات. ورغم اختلاف عدد الخلايا، إذ أن شبكة القلب بها 40000 خلية والمخ به عشرة مليارات، إلا أن نتائج الأبحاث الجديدة توضح أن الأذين الأيمن والأيسر يمثلان أكثر من 80 % من الجهاز العصبي للقلب، وهي من التعقيد

بحيث قال عنها العديد من العلماء أنها قادرة على التفكير والإحساس بل لقد أُطلق عليها عبارة "مخ القلب"!

ويُعد القلب أكثر أعضاء جسم الإنسان ذكرا في القرآن، إذ تم ذكره 131 مرة، ذُكرت فيها كل الوظائف التي تم اكتشافها حديثا. وتربط بين القلب والمخ أربع آليات للتواصل بينهما: الآلية العصبية، والآلية الهرمونية، والآلية الدموية، والآلية الكهرومغناطيسية. أي إن الطب الحديث، وهنا في هذه الجزئية، يرجع إلى أواخر القرن العشرين، يؤكد على أن القلب هو العضو الأهم في الحفاظ على الوظائف والمعدلات الطبية لجسم الإنسان من الناحية الجسدية والنفسية. بل حتى الكفر تم ذكره في آيات القلب، ومنها:

* {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّـهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} ﴿١٥١/ آل عمران﴾،

* {تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّـهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} ﴿١٠٢/ الأعراف﴾،

* {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّـهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّـهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} ﴿١٥٥/ النساء﴾.

ومن أحدث الدراسات التي تمت حول القلب، توصلت الباحثة آنّي ياسكييه التي تدير معهد **"تنمية الإنسان"** في مدينة كيبك بكندا، إلى أن القلب له عقل منفصل، بمعني أنه يمتلك نظاما عصبيا منفصلا وشديد التطور، يعمل بطاقة عصبية قدرها 40000 نيرون، وشبكة مركبة مليئة بالناقلات العصبية والبروتين والخلايا المساندة. وبفضل هذه الأجهزة الشديدة التعقيد يمكن للقلب أن يتخذ القرارات ويقوم بالتنفيذ مستقلا عن العقل. إذ يمكنه أن يتعلم ويتذكر بل وأن يستبصر. وذلك كله من خلال أربع نقاط ارتكاز:

* الركيزة الأولي: الاتصال العصبي عن طريق نقل الشحنات العصبية، فالقلب يرسل من المعلومات للعقل أكثر بكثير مما يتلقى منه. وهو الجهاز الوحيد في الجسم الذي يمتلك هذه الخاصية، كما يمكنه إخماد أو تنشيط أجزاء معينة من العقل ووفقا للظروف. ومن هنا فهو يمكنه التأثير على إدراكنا للواقع وبالتالي على ردود أفعالنا.

* الركيزة الثانية: إن القلب هو الذي يفرز هورمون ال ANF الذي يؤكد التوازن العام للجسم وأحد إمكانيات هذا الهورمون هو كبت هورمون التوتر وإنتاج وإطلاق صراح الأوسيتوسين المعروف بأنه هورمون الحب.

* الركيزة الثالثة: الاتصال البيو فيزيقي عن طريق موجات الضغط. فمن خلال إيقاع نبض القلب وتنويعاته يرسل القلب رسائل للعقل ولباقي الجسد.

* الركيزة الرابعة: الاتصال عن طريق الطاقة الحيوية لأن الحقل الكهرومغناطيسي للقلب هو الأقوى من كافة أجهزة الجسم، وخمسة آلاف مرة أكثر حدة أو نشاطا من العقل. وهو يتغيّر تبعا للحالة العاطفية.

وحينما نشعر بالخوف أو بالإحباط أو بالتوتر يصبح القلب مشوشا. إلا أنه يعود إلى انضباطه بالانفعالات الإيجابية. ومن المعلوم أن الحقل المغنطيسي للقلب يمتد من مترين إلى أربعة أمتار حول الجسم. أي أن كل الذين يحيطون بنا في هذا الحيّز يتلقون المعلومة الفعالة (المتعلقة بالطاقة) الموجودة في قلبنا.

وما نصل إليه من هذه الاكتشافات ان دائرة نشاط عقل القلب هو أول من يتناول أو يعالج المعلومة التي تنتقل بعد ذلك إلي عقل الرأس. أي أن هناك نوعان من ذبذبات القلب: إحداهما متجانسة مع الموجات الواسعة المنتظمة وتتخذ هذا الشكل حين يكون الإنسان في حالة انفعالات إيجابية، راقية، ونبيلة. أما الأخرى فهي هوجاء غير منضبطة الموجات. وهو ما يتجلى مع الخوف والغضب أو الريبة. فالموجات العقلية مرتبطة بتنويعات إيقاع القلب، أي أن القلب هو الذي يقود العقل. وخلاصة ذلك أن حب القلب ليس مجرد انفعال وإنما حالة من الإدراك أو الوعي الذكي.

لذلك يمكن القول بأن عقل القلب ينشّط المراكز العليا للإدراك في عقل الرأس. وهي رؤي جديدة تماما تفسر الواقع دون الاعتماد على التجارب الماضية. وهذه الدائرة الجديدة لا تمر عبر الذكريات القديمة، لأن معرفته فورية، تلقائية، لذلك لديه رؤية دقيقة عن الواقع.

ومما تم التوصل إليه أيضا أنه حينما يستخدم الإنسان عقل قلبه فإنه يخلق حالة من التوافق البيولوجي، ويصبح كل شيء متجانسا ويعمل بانضباط. أنه مستوي ذكاء أرقي وينشط من خلال الانفعالات الإيجابية، لذلك نطالع في القرآن الكريم أن الله سيحاسب القلب، لأنه هو الذي يمتلك الهبة الإلهية بأن نختار الخير لنا وللقريب، أي للآخرين. فالإيمان يجب أن يسبق الذكاء لكي يصبح الذكاء مكافأة الإيمان. لذلك يقول الله عز وجل:

* {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} ﴿٤٦/ الحج﴾.

ورغم كل ما قدمه لنا الله سبحانه وتعالي من توجيه وتوضيح، هناك قلوب قد تحجرت كالحجارة أو أكثر، فهناك حجارة تخرج منها الأنهار، وأخري يتدفق منها الماء، وغيرها تسبح وتسجد من خشية الله.. لذلك يقول المولي جل في علاه:

* {لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّـهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّـهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} ﴿٢٢٥/ البقرة﴾.

ولو اختصرنا ما تقدم في بعض كلمات لخرجنا بأن العلاقة بين العقل والقلب وتنميتها تؤدي إلى الشفاء المعرفي مع توافق الذبذبات القلبية. أي أن القلب له عقله الخاص به ويتضمن الأربعين ألف خلية عصبية ويولد من الطاقة أكثر مما يولده العقل الكامن في الجمجمة. وهو أحدث ما توصل إليه معهد Heart Math Institution وأثبت تأثير القلب على تطور الإيحاء وتهدئة الصدمة النفسية العميقة. وأن القلب يرسل من المعلومات إلي العقل أكثر مما يرسله العقل للقلب. أي أنه علي العقل أن يلتزم بأوامر القلب لكي نعيش في وئام وصحة جيدة بفضل تجانس الذبذبات القلبية. وهو ما يتم بضبط النفس والتنفس.

حُبُك الحب في القرآن

إن أول استخدام لكلمة "الحب" في القرآن الكريم نجده في سورة "**الحجرات**" آية 49: {... وَلَـٰكِنَّ اللَّـهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَـٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} ﴿٧﴾ فالإيمان هو أول ما يرشدنا ويوجهنا إليه ربنا سبحانه وتعالي، وأول ما استبعده عنّا وعن قلوبنا هو الكفر والفسوق والعصيان.. وأن هذا التوضيح الشديد هو فضل من الله ونعمة، لأن الله سبحانه عليم حكيم. كما فرّق سبحانه وتعالي بين الناس وما يحبون:

* {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّـهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّـهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّـهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّـهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّـهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} ﴿١٦٥/ البقرة﴾.

كما أن الحب والهداية بأمر الله سبحانه وتعالي. فقد ذبح سليمان الخيل رغم ولعه بها لأنها شغلته عن حب الله (32/ ص). وأننا لن ننال البرّ حتى ننفق مما نحب (92/ آل عمران)، وخاصة ينصحنا المولي عز وجل أن نعفو ونصفح عمّن أساء إلينا، بل ونغفر له، أي أن نتجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه سبحانه، والإعراض عنه وستره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ﴿١٤/ التغابن﴾.

ولو رجعنا إلى رحابة الحب عند الله ومن يحبهم، لوجدنا أنه يحب المحسنين، التوّابين، المتطهرين، المتّقين، الصابرين، المتوكلين، المقسطين، والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص. ومن البديهي أن نطالع أنه إذا لم نلتزم ونحب ما ينصحنا به رب العالمين فسوف يأتي بقوم يحبهم ويحبونه..

أما من لا يحبهم الله فهم: المعتدون، الفاسقون، وكل كفّار أثيم، والكافرين، والظالمين، وكل مختال فخور، ومن كان خوّاناً أثيم، والجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم. كما لا يحب المفسدين، ولا المسرفين، ولا الخائنين، ولا المستكبرين، ولا كل خوّان كفور، ولا الفرحين..

وإن كانت هذه الأوصاف قد أتت مرة واحدة، فهناك من الأوصاف ما تكرر مرتين أو ثلاث مرات، إلا صفة الخيانة، فقد تكررت في ثلاث تحديدات مختلفة: "الخوّان الأثيم"، و"الخائنين"، وكل "خوّان كفور".. فالخيانة بأنواعها هي أقبح ما يكره الله.

ومما أثبتته العلوم الحديثة أننا جميعا متصلون بعضنا بعضا، ومتصلون بكل شيء في الوجود أو في الكون وإن كانوا لم يستخدموا كلمة **"الحُبُك"** التي أوجز بها المولي سبحانه وتعالي كل أو مختلف أنواع الحُبُك التي تُمسك وتربط بين كل أجزائه فيما بين السماوات والأرض. وكون الغرب لا يعلم هذه الكلمة ولا كل تنويعاتها فالتقصير منا وسوف نحاسب عليه. مثلما سوف نحاسب على عدم متابعة ما يصل إليه بكل دقة حتى نتمكن من توصيل ما لدينا من علم ومعطيات في القرآن.

كلنا متصلون بعضنا بعضا ومتصلون بكل شيء في الوجود وفي الكون. لأن كل شيء في الوجود طاقة. وهذه الطاقات المتعددة والمتنوعة تتصل وتنجذب فيما بينها. فحين نطلق فكرة فإنا نطلق طاقة في الكون وتتحول إلى جزء من الطاقة المنتشرة وتجذب إليها طاقات أخري على نفس درجة التردد. وهذه الطاقات موجودة، وغير مرئية، ولا فواصل تحدها. لكنها تتجاذب مع غيرها حين تكون في نفس صفاتها. فحين تكون الفكرة إيجابية تنعكس على كل تصرفاتنا وحركاتنا وعباراتنا.

فكل هذه المشاعر المختلفة، أو شديدة الاختلاف هي أنواع من الحُبُك التي تربط فيما بين الناس. وإن كل فكرة خيّرة تأتي للإنسان هي تعبير مباشر من الله. وعلي الإنسانية أن تجتاز مرحلة أنها تعتمد على قواها الذهنية أو النفسية فقط، وعليها أن تصل إلى التعبير ابتداء من قول الله وانطلاقا من تعاليمه في القرآن.

ذلك أن شجرة الحياة توجد في أعماقنا وتنمو بالإتقان والتقدم، وأكبر ثمارها الحب. فالحب هو أكبر قوة دافعة معطاءة في الوجود، وأكبر طاقة محركة للإنسان، لأن الحب هو نبض قلب الكون..

الفصل الثالث

الزمن في القرآن

الزمن والوقت إسمان لا يدلّان على فهم فترة محددة، فالزمن اسم لقليل الوقت أو كثيره. والوقت هو مقدار من الزمن. وكل شيء قُدّر له حينا فهو مؤقت. والزمن يرتبط بسرعة الحركة، فهو الضلع الرابع للمادة وفقا لنظرية النسبية. وهناك مقاييس متعددة للزمن مع البشر، وأزمنة مختلفة مع الكواكب ومع المجموعة الشمسية، ومع الكون ومجراته التي تحتسب أبعادها بالسنوات الضوئية وسرعتها 300000 كم/الثانية. ومنها نسبية الزمن مع العوالم الأخرى ومع المخلوقات المختلفة كالأروح والملائكة والجن والشياطين، وجميعها تتحرك بسرعة يصعب تصورها، وربما كانت بسرعة الضوء أو أكثر، لأنهم بلا أجسام مادية ملموسة، فهي أقرب ما تكون لنوعية تلك الأجواء العليا. كما ترتبط بالسهولة في الحركة بالمكان الذي يوجدون فيه فوق سطح الأرض بمسافات متفاوتة.

ولفهم هذه الجزئية الأخيرة لا بد من إلقاء نظرة خاطفة على معلومة طبقات جو الأرض. فالسماء تبدأ من فوق سطح الأرض بما في ذلك الغلاف الجوي والفضاء الخارجي. وهو أيضا الكون بما يحويه من مجرات ونجوم وكواكب ومادة مظلمة. وتبدأ حافة الفضاء حيث ينتهي الغلاف الجوي. وقد حدده كارمان ((Theodore von Karman (1881-1963)، وهو أول من حسب أنه عند ذلك الارتفاع، عند مائة كيلومترا من منسوب سطح البحر. ويستخدم للتفرقة بين الغلاف الجوي للأرض والفضاء الخارجي. وبعد خط كارمان لا يمكن التحليق فيه لانفصال الغازات عن بعضها، وهو بداية الفضاء رسميا، وله الأجهزة الخاصة التي يمكنها التحليق فيه. وتمتد هذه الطبقات من نحو 800 كم إلى 10000 كم فوق سطح البحر. وعندها يصبح الغلاف الجوي أكثر رقة كلما ارتفعنا إلى أن يختفي تماما.

ولكي ندرك الصلة بين المجالين، مجال الكائنات التي لا جسم مادي لها، والطيران او التحليق فوق خط كارمان يجب مراعاة أنه عند ذلك الارتفاع يصبح الغلاف الجوي رقيقا جدا وتصعب الملاحة فيه لأن أي طائرة عند هذا الارتفاع ستضطر إلى الطيران بسرعة أسرع من السرعة المدارية لكي تستخلص من الجو قوة رفع هوائي كافية تمكنها من دعم نفسها. فالجو لا ينتهي فجأة عند علو معيّن، لكنه يصبح أرق تدريجيا مع الارتفاع إلى أن يتلاشى. وتدلنا هذه الجزئية الأخيرة أو تفسر لنا كيف أن الكائنات التي لا أجسام مادية لها يمكنها التحليق والتحرك أو الارتفاع في الفضاء العلوي بسهولة وبسرعة تقاس بلمح البصر (كما في سورة **"النمل"**/40: {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}، لأن تكوينها أساساً من مادة أثيرية يسمح لها بالتحرك فيها.

ونسبية الزمن واردة في القرآن كتحديد مدة خلق السماوات في ستة أيام: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} ﴿٧/ هود﴾ ، أو خلق الأرض في يومين: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ﴿٩/ فصلت﴾. وتجهيزها لمعيشة البشر في مدة زمانية مختلفة.. وهناك العديد من المستويات الزمانية كاليوم يساوي خمسون ألف سنة مما نَعد (سورة المعارج)، وتدبير الأمر بين السماء والأرض، أو العروج إلى رب العزة في يوم مقداره ألف سنة، وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، أي حوالي 83 سنة تقريبا..

ولا شك في أن القرآن الكريم به إعجاز علمي فلكي شديد التقدم من كثرة وعمق ما به من معلومات عن مجالات مختلفة متعلقة بالزمن، إلا أن ذلك لا يمنع من أن كلمة **"الزمن"**، أي الجذر **"ز م ن"** غير واردة في القرآن الكريم، مثلها مثل كلمة "العقل"، أي الجذر "ع ق ل". وقد تناولتها في بحث **"الغيب في القرآن"** وأوضحت أن قيمة العقل كما هي واضحة في القرآن الكريم تكمن في تفعيله، بدليل أن الإنسان الذي حُرم من نعمة العقل والقدرة على تفعيله يعد خارج التكليف شرعا. لكننا على العكس من ذلك نجد: يوقنون، يعقلون، يؤمنون، يتذكرون، يعلمون، يتقون.. وجميعها قائمة على تفعيل العقل.

ونفس الشيء نطالعه بالنسبة للزمن: فالجذر في حد ذاته غير موجود، فهو كما رأينا بعاليه، إن كلمتا الزمن والوقت لا يدلان على أي تحديد زمني. لكننا نجد أن كل تفعيلات الزمن، مثلها مثل تفعيلات العقل، تدخل في كافة التقسيمات التي نعرفها ونعيش بمقتضاها، وكأنها الحُبُك التي تربط الإنسان وإيقاع حياته بالله سبحانه وتعالي، وبكل ما أكرمه به في القرآن، وبكل ما يحيط به في الدنيا والكون.

ونطالع في القرآن الكريم أن هناك زمن متعلق بالدنيا، وزمن متعلق بالآخرة، وكأنهما زمن دنيوي بكل تفاصيله، وزمن غيبي أو أخروي، يتم تعريفه لنا إجمالا أو بوضوح خاصة في آيات يوم الحساب والجنة والنار. وقد أقسم الله بالعديد من أجزاء الزمن أو مسمياته كالعصر، والفجر، والضحى، والليل. كما ذكر مختلف أنواع الزمن الممتد: كالأبد والدهر، أو الزمن المحدود: كالأجل والحين. بل إننا نجد تقسيمات السنة من حول، وعام، وشهر، ويوم، والفصول، أو حتى أجزاء من اليوم. إلا أن كلمة "اليوم" هي أكثر الكلمات الزمانية استخداما في القرآن على الإطلاق، فقد وردت 350 مرة وتصريفاتها 56 مرة. وكأن اليوم بجزأيه من الليل والنهار، هو الحبيكة الأساس والوحدة الزمانية أو المقياس الزمني الأساسي الذي يضبط إيقاع الحياة على الأرض ويربط الأرض بما حولها وبالسماء.

والزمن يتداخل في كل جزئيات الكون، وهو جزء لا يتجزأ عن الطبيعة ولا عن كل ما خلقه الله. فالزمن يسري في كل سور القرآن كجريان الدم في جسم الإنسان. بل يبدو في واقع الأمر وكأن دقات القلب، ذلك العضو الذي يكتمل خلقه وينبض قبل إتمام خلق الجنين، ويواصل نبضه حتى لحظة الموت، هو الحبيكة الرئيسية التي تربطنا بالجسم وبالدنيا، وكأنه عداد يؤكد لنا أن الحياة هي مجرد نبضات.. نبضات تذكرنا بأن الزمن عبارة عن دقائق وثوان..

وفيما يلي تفاصيل ما نخرج به من موضوع الزمن في القرآن:

الدهر، الأمد، الطرف:

تمثل هذه الكلمات الثلاث طرفي المقياس الزمني في القرآن من حيث الطول الشديد وأقل لحظة زمانية. الطول الذي قد يصل إلى خمسين ألف سنة، وطرفة العين التي تأخذ أقل من الثانية. والواضح أن هذه المقاييس لا تدخل في الاستعمال اليومي للإنسان، وكذلك طرفة العين. واللافت للنظر أن نجد ورودها في القرآن جد قليل، مثلها مثل استخدامنا لها كمقياس زمني. وكأنها تعكس أنماطا مختلفة من الحُبُك التي تربطنا بالزمن ومختلف مقاييسه.

فكلمة "الدهر" وردت مرتان في سورة "**الإنسان**"، وفي سورة "**الجاثية**". وتلخص لنا بداية سورة "الإنسان" بإيجاز شديد، ذلك المخلوق المتفرد الذي خلقه الله من نوره وحمّله رسالة قلّ من أدرك معناها: {هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} ﴿٣﴾. فلا زيغ ولا تلاعب، الإنسان لا سبيل ولا صفة له في نظر المولي سبحانه إلا أن يكون إما مؤمنا شكورا أو غير مؤمن كافرا. فلا خيار وسط بين الإيمان والكفر بالله.

ولقد وردت كلمة "الأمد" أربع مرات وجميعها تشير إلى ذلك الزمن الممتد الذي قلما نستخدمه في إيقاع حياتنا اليومية، ومنها آية: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّـهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} ﴿١٦/ الحديد﴾.

أما كلمة "الطرف" وهي اسم جامع للبصر، لا يُثني ولا يُجمع، فهو مجرد تلامس خاطف للجفنين، وهي أقل وحدة زمانية مسجلة في الإنسان. إلا أن لها معان أخري كغض الطرف، أي عدم النظر بتبجح، وغض الأطراف، مما يُحمد للنساء، أي ضم اليد والرجل عند الجلوس. ومن معانيها الكريم من الناس، والخيل العتيق، والطيّب الطريف. وبخلاف ثلاث آيات تتعلق بقاصرات الطرف في الجنة، هناك ثلاث آيات توضح لنا حالتان مختلفتان للتعبير عن رد فعل الإنسان يوم الحساب حين تشخص فيه الأبصار ولا يرتد طرف العين وإنما تظل مفتوحة منفرجة من الصدمة والذهول:

{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّـهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} ﴿٤٣/ إبراهيم﴾. وآية سورة **"الشورة"** التي تعكس لنا أحد مواقف الخجل والذل للظالمين حين لا يجرؤ أحدهم على المواجهة فينظر من طرف خفي: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ} ﴿٤٥﴾.

ونطالع في واحدة من أهم الآيات التي تكشف لنا عن أحد مجالات الغيب في القرآن، في قصة ملكة سبأ، حين طلب سليمان أن يأتيه أحد الحاضرين بعرشها. فأجابه عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مكانك، وقال آخر: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} ﴿٤٠﴾.

كما نطالع في القرآن أن هناك ما يسمي "علم الكتاب"، و "علمٌ من الكتاب". والكتاب هنا هو القرآن الكريم، ويلفت نظرنا المولي سبحانه أن القرآن به من العلوم والمجالات التي تسمح لمن يمكنه فهمها واستخراجها، أن يقوم بأفعال خارقة. وهي قدرات كالحُبُك تربطه بعلوم تصله بعالم الغيب وتفتح له مجالاته. وقد حجب الله سهولة الوصول إلى هذا المستوي حماية من سوء استغلاله، وذلك بتغيير ترتيب نزول القرآن الكريم.

السنة، السنين:

ترد كلمة سنة في القرآن 7 مرات، وكلمة سنين 12 مرة. وجميعها تحدد لنا شيئا كمقياس زمني يربطنا بما يقوله المولي سبحانه من تعاليم وأحداث، أو بما مرّت به الإنسانية من وقائع تاريخية. وهنا تبدو الأحداث كالحُبُك التي تسري كالتعاريج المتقطعة المرتسمة على رمال التاريخ وصحاريه.. أحداث تتجاور وتتوالى عبر الزمن. وما أكثر ما تقصه علينا، فمنها رغبة بعض

الأشخاص لو أمكنها أن تعمّر ألف سنة، وتحريم اليهود من الدخول في فلسطين وكتب عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة..

وترد الكلمتان في استخدامها كمقياس لما بين السماء الدنيا والأرض بأنها ألف سنة. وكأن شؤن الدنيا تدار من تلك السماء الأولي. وأن اليوم من الأرض إلي السماوات العلي بخمسين ألف سنة مما نعد نحن البشر. وهذه بمثابة حُبُك ثابتة راسخة ممتدة رغم المسافات. وهناك غيرها لها دلالة محددة كتلك التي تحيطنا علما بأن نمو جسم الإنسان ونضجه يكتمل عندما يتم أربعين سنة من العمر.

كما تدخل عبارتا السنة والسنين في القصص التي لها مضمون تاريخي محدد كقصة يوسف، وأهل الكهف، وقصة موسي، من مولده وإعادته إلى أمة وبقائه وسط أهل مديان سنين، وقيامه بتلك الفعلة الشنيعة بقتله نفسا، وكان من الكافرين آنذاك، قبل أن يصطنعه الله لنفسه ليتولى تبليغ الرسالة.. وجميعها تبدو كأنها ملامح من خطوط متقطعة مرتسمة على صفحة التاريخ، كتلك الحُبُك التي ترسمها الريح على سطح البحر الهادئ في أبعاد زمانية مترامية.

الشهر:

وردت كلمة الشهر في القرآن الكريم 21 مرة بمختلف تصريفاتها اللغوية والعددية، فنطالع على سبيل المثال: الشهر، شهرا، شهرين، الشهور والأشهر.. ونبدأ بالتعريف بالشهر كما هو وارد في القرآن: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّـهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّـهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} ﴿36/ التوبة﴾. وهو ما نطالعه بعبارة أخري في سورة "**الزخرف**": {حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} ﴿٤﴾. أي إن القرآن موجود في أم الكتاب. ثم نطالع في آية أخري في

سورة **"البروج"**: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} ﴿٢٢﴾. وهو ما نفهم منه أن كتاب الله، القرآن المبين في أم الكتاب، وأنه لعليّ حكيم ومحفوظ في لوح عند الله سبحانه وتعالي.

وأم الكتاب لها في التفاسير عدة معاني: فهي فاتحة القرآن، لأننا نبدأ بها في كل صلاه، وأم الكتاب تعني أيضا: أصل الكتاب. وقيل اللوح المحفوظ، وكل القرآن من أوله لآخره. واللوح يعني كل صحيفة عريضة من صفائح الخشب. واللوح المحفوظ يعني: مستودع مشيئة الله تعالي. وهذا اللوح، بصيغة المفرد، غير الألواح التي كتبها الله سبحانه وتعالي لموسى وفيها من كل شيء موعظة. فالمواعظ غير دستور حياة شامل كامل كالقرآن الذي لم يفرط فيه الله عز وجل من شيء.

ونخرج من هذا التسلسل بأن كتاب الله هو الكتاب المبين، وأن المولي عز وجل جعله قرآنا عربيا لعلنا نعقله {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} ﴿٤/الزخرف﴾. ثم نطالع آية أخري في سورة **"البروج"**: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} ﴿٢٢﴾. وهذا اللوح غير الألواح التي كتبها الله لموسى، من كل شيء موعظة. بما أن القرآن محفوظ في لوح، وألواح موسي مثني، والمثني يُجمع.

ولو رجعنا إلى سورة **"التوبة"** في بداية جزئية الشهر لرأينا {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّـهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّـهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، لأدركنا أن الإطار العام للخليقة كان موجودا جاهزا قبل عملية خلق السماوات والأرض. والواضح من الآيات أن الله سبحانه وتعالي قد وضع أولا دستور الحياة والخليقة ونظامها، ثم قام بتطبيقه عمليا بخلق السماوات والأرض وكل ما أوحاه لنا في القرآن الكريم من معلومات لم نصل بعد إلى فهم كل ما يتضمنه لأن الغالبية العظمي من العلماء تتوقف عند حد اللغة..

وأول ما نطالعه في تقسيمات الشهر في القرآن هو تحديد نظام شهر رمضان الوارد في سورة **"البقرة"**، وكأنه أساس الشهور أو أهمها: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ

أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّـهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّـهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾}.

وتتوالى تفاصيل كيفية التعامل والالتزام بالشهر الفضيل، ومع الشهور التي تدخل في نطاقه وكيفية التصرف في الحج من مناسك وعبادات وواجبات. ثم نطالع كيفية تنظيم الجهاد في الشهر الحرام. ويقول المولي سبحانه:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّـهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ﴿٢١٧/البقرة﴾.

ويوضّح لنا الله حدود هذه المعارك وكيف يكون الرد على الكفرة بتقنين إلهي: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّـهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} ﴿١٩٤/ البقرة﴾.

أما بعد الأشهر الحرام فيوصينا الله عز وجل: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ﴿٥/ التوبة﴾.

ولا تتوقف عملية تنظيم القتال ضد المشركين ولكن نطالع أيضا تقنينا للقتل الخطأ، أولا بين المؤمنين أو إن كان من قوم عدو. ويا لها من تفاصيل محددة صارمة الحبكة، واضحة في كل جزئياتها تربطها وتعود بها دوما إلي العدل الإلهي. وتختم تفاصيل ليلة القدر جزئية شهر رمضان وتقنين تفاصيلها. فيقول رب العزة: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ} ﴿٥/ القدر﴾.

وبخلاف قيمة هذه السورة المباركة تحديدا، لأهمية نزول القرآن في ليلتها، إلا أن بها محتوي غيبي واضح، وذلك بالتأكيد على نزول الملائكة والروح فيها. فهي تؤكد لنا أن تحرك الملائكة واتصالهم بالأرض ليس متروكا هباء وإنما هم يتحركون بإذن الله وبأمره. وما أكثر ما نطالعه في القرآن من مواقف كان للملائكة منها أو فيها دورا أساسيا بل وحاسما بمساعدة جيوش المسلمين في معاركهم وإنقاذهم من المشركين.

ونعلم من القرآن أن لله جنود السماوات الأرض، ومساعدتهم المؤمنين في العديد من المعارك من قبيل غزوة حنين، وغزوة تبوك، ومعركة بدر، وأحد.. كما نعلم بتسخير الريح لسليمان، وسخر له من الجن من يعمل بين يديه، يعملون له ما شاء من محاريب وتماثيل وجفان.. وما أكثر الموضوعات الروحية أو الغيبية التي يزخر بها القرآن وبحاجة إلى من يتولون دراستها علميا وتوضيحها لأهميتها القصوى لفهم مختلف أبعاد نص القرآن.

ثم هناك مجموعة أخري من الآيات التي ترد فيها كلمة شهر متعلقة بتنظيم العلاقة الأسرية وتوصية الله للإنسان المسلم بوالديه إحسانا، وتقنين فدية القسم الخطأ، كما نطالعه في سورة **"المجادلة"**: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّـهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ﴿٤﴾. وأيضا تنظيم شروط الزواج الثاني للمرأة بعد وفاة زوجها، وجميعها عبارة عن تنظيمات دينية وأسرية وروحية تسير جنبا إلى جنب في تقارب واستقامة أشبه ما تكون بالخطوط المتوازية المتجاورة المحبوكة في النسيج والتي تُعد من المعاني الرئيسية للحُبُك.

اليوم

من مختلف المقاييس الزمانية الوارد ذكرها في القرآن تحتل كلمة "اليوم" الصدارة من حيث النسبة العددية. وكأن اليوم هو المعيار الرئيسي في منظومة الزمن، بل هو فعلا الحبيكة الأساس التي تحكم دورة الحياة الدنيا والعليا، تحبكهما بمختلف جوانبها، بما في ذلك يوم الحساب! ولفظة

اليوم تعني دورة الليل والنهار كوحدة واحدة. وقد ورد لفظ "يوم" بكل تشكيلاته 472 مرة، وبصيغة المفرد 348، وبصيغة الجمع 27، كما يُركب مع إذ فيعطي: يومئذ. وفي جميع مواضعه يرد بصيغة الاسم الدال علي الزمان منذ بدء الخليقة. وكأنه دعامة تمتد من الأرض إلي أعلي السماوات، أو عَمَد من العُمُد التي أشار اليها الله لرفع السماوات ولا نراها.

ففي بضع آيات نطالع بصورة خاطفة أن الله سبحانه وتعالي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وما مسّه أيّ تعب أو اجهاد. ثم استوي على العرش:

يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثا. والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. ثم استوي على العرش يدبر الأمر: جعل فوق الأرض رواسي وقدّر فيها اقواتها. ثم استوي إلى السماء وهي دخان، وقال لها وللأرض أئتيا طوعا أو كرها، قالتا: "أتينا طائعين".

ونفهم من رد السماء والأرض أن كل ما خلقه الله سبحانه وتعالي يسمع ويدرك ويجيب. أي أن هناك حوارا بين كل شيء في الكون منذ أولي لحظات خلقه. وهو ما بدأ العلماء في الغرب يكتشفونه حديثا. بل ومن هنا ندرك أيضا أن الحوار هو نوع من التواصل والربط المعنوي بين المخلوقات وكأنها حُبُك مؤكدة تجمع فيما بينها.

ثم قضي السماء سبع سماوات في يومين، وأوحي في كل سماء أمرها، وزيّن السماء الدنيا بمصابيح وحفظا. وكأن هذه المصابيح لها مهمتان تقومان بها، فهي من ناحية تزيّن السماء ومن ناحية أخري تقوم بدور الحفاظ عليها. وكأنها حُبُك أساسية تربطها فيما بينها منذ بداية منظومة الخلق، لذلك أقسم بها المولي قائلا {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} ﴿٧/ الذاريات﴾. وتلخص لنا الأية الرابعة من سورة "**الحديد**" كل ما تقدم بإيجاز شديد، وتحذرنا في آخر مقطع بها بتلخيص معني وجودنا في الحياة على الأرض وأن الله معنا أينما كنا وأنه بصير بكل ما نعمل:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}. وجميع المعلومات الواردة باقتضاب في هذه الآية نتبينها وندركها بالتفصيل من كل ما

ورد في نص القرآن الكريم. كما أن عبارة "وما يعرج فيها" توضح لنا أن الحركة بين السماوات من أسفل إلي أعلي وفي خط منحني، فالعروج دائما يكون إلي أعلي بانحناءة وليس في خط مستقيم.

كما قد تعبّر كلمة اليوم عن إشارة لفترة زمانية معيّنة بلا تحديد كما في سورة **"آل عمران"** {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّـهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} ﴿١٥٥﴾.

ثم نطالع سردا كمجموعة من الأقوام والأنبياء والرسل في مساحة زمانية تتردد أصداؤها في الزمن الممتد.. شذرات متجاورة ومتعاقبة كخطوط الحُبُك المتقطعة التي ترتسم على صفحة التاريخ المترامي على امتداد الأرض أو بين الأرض والسماء وما لاقوه في رحابها..

فقد أرسل الله موسي بآياته ليخرج قومه من الظلمات إلي النور. وذكّرهم بأيام الله ومن ينصرهم من بأس الله إن جاءهم. وعصي فرعون زاعما أنه لا يهدي قومه إلا سبيل الرشاد، وقرر ليلتقوا يوم الزينة. فجمع السحرة لميقات يوم معلوم.. فقال الذي آمن أنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب، يوم التنادي، يوم يولون مدبرين، فلا عاصم لهم إلا الله.. {وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} ﴿٢٧/ غافر﴾. وعصي فرعون الرسول فأخذه الله أخذا وبيلا.

ويصف لنا المولي عز وجل ما ينتظر ذلك المتمرد قائلا: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} ﴿١٧/ المزمل﴾. أما فرعون فقد نجاه الله ببدنه ليكون آية لمن خلْفه.. وكثير من الناس غافلون عن آيات الله.

وكذبت عاد برسولها فكيف كان رد رب العزة؟ {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} ﴿**١٩/ القمر**﴾. فسخرها عليهم المولي سبع ليالي وثمانية أيام حسوما، فتري القوم فيها صرعي كأنهم أعجاز نخل خاوية!

كما أرشد الله نوحا إلى قومه يرشدهم إلى عبادة الله فلا يوجد إله غيره. فاتهموه بالضلال. بل حتى ابنه رفض أن يسمع النصيحة زاعما أنه سيأوي إلي جبل يعصمه، فكان من الغارقين.. وجعل

داود خليفة في الأرض ونصحه أن يحكم بالعدل ولا يتبع الهوى فيضل عن سبيل الله، {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} ﴿٢٦/ ص﴾. وهي آية بها إشارة إلهية توضح لنا أن مجرد نسيان يوم الحساب يستوجب العذاب!

وتتوالى سير الأنبياء والرسل كأيام نطويها كالصفحات.. ويمر شعيب المرسل إلى مديّن وينصحهم ألا ينقصوا في الميزان، ويونس الذي لولا أنه كان من المسبّحين لظل في بطن الحوت. وطالوت وجالوت وجنوده.. وسيدنا إبراهيم الذي يوضح لنا معرفته بقدر الله عز وجل، ويعلم تحديدا أن الله، كما يقول: {يميتني ثم يحييني}.. وهي إشارة خاطفة توضح لنا مدي معرفة سيدنا إبراهيم بمجال الغيب وأنه بعد الوفاة سيحييه رب العزة. فالحياة الدنيا مجرد مرحلة انتقالية خاطفة، تتواصل الحياة بعدها.. وطلب من المولي أن يغفر لأبيه لأنه كان من الضالين.. بل واصل الدعاء قائلا: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّـهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩/ الشعراء﴾.. فالقلب السليم هو المعيار، المعيار لكل ما يقوم به الإنسان من أعمال واختيارات طوال حياته في الدنيا.

اليوم/ تشريع، عبادة

من أهم الموضوعات الواردة ضمن آيات اليوم المتعددة، آيات تشريعية وعبادية واجتماعية تضع الخطوط الرئيسية لتصرفات المسلمين بدءاً بعبادة الله سبحانه وتعالي. فهي الروابط الأساس التي تنظم حياة المسلم وأشبه ما تكون بالسُدي واللَحمة بالنسبة للنسيج وحبكته التامة. ويقول المولي: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} ﴿١٨٦/ البقرة﴾.

والإيمان بالله يرتبط بالعبادة والصلاة وخاصة صلاة يوم الجمعة، والالتزام بكل ما أنزله الله من تعليمات تنظيمية واضحة. وقد خص الله يوم الجمعة بسورة يوضح لنا فيها أهميتها وأهمية الصلاة وأن نبدّيها على أي شيء آخر. ويأخذ شهر رمضان أهمية خاصة في الآيات التي يرد بها ذكر

اليوم. فالصيام قد كُتب علينا مثلما كُتب على الذين من قبلنا. وتكمن أهمية شهر رمضان في أنه قد أُنزل فيه القرآن. وهو أهم وأكبر ما يربط الأرض بالسماء، وكأنه من تلك العَمَد الممتدة من السماء إلى الأرض ومنها إلي أعلي. فرمضان محسوب باليوم وينظم كل ما يتعلق بحياة المسلم في مختلف المجالات، أو كما قالها رب العالمين: لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وقننها في هذا القرآن الذي تم تنزيله ليكون دستورا للحياة على الأرض بكلها.

اليوم/ الشيطان

قليلة هي الآيات المتعلقة باليوم ويأتي فيها ذكر الشيطان، وكأنها قضية محددة، محسومة باختصار شديد خاصة وأن الله سبحانه وتعالي يوضح إن القضية لا اختيار فيها: انسياق للشيطان أو ثبات على الإيمان. ولا تستحق من التفكير أكثر من ذلك! فقد أمر ربي الشيطان أن يسجد لآدم فرفض على أن آدم مخلوق من طين، وهو، الشيطان مخلوق من نار. فطرده المولي سبحانه من الجنة. فما كان من الشيطان إلا أن طلب من الله أن يتركه إلى يوم يُبعثون. ومن الغريب أن تتكرر الآيتان المتعلقتان بهذا الموقف مرتين. كان رد الشيطان واحدا، أم رد الله سبحانه وتعالي فلم يختلف إلا في أداة التعريف:

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ} ﴿٣٦/ الحجر﴾؛

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ} ﴿٧٩/ ص﴾.

وكأن الشيطان لُعن بكل المقاييس: لعنة عامة على الإطلاق، ولعنة خاصة من الله سبحانه، وما أصعبها. فالشيطان يُزيّن الأعمال غير السوية للناس، وحين يقع المؤمنون في إغرائه يتملص منهم قائلا: {إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّـهَ ۚ وَاللَّـهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ﴿/ ٤٨ الأنفال﴾!

ونفهم من هذه الآية أولا مدي لؤم الشيطان وادّعائه الخوف من الله، كما نفهم أن الشيطان يرى ما لا يراه البشر. فهو مخلوق من نار والنار أثيرية أو طاقة حرارية لا ملمس مادي لها. الأمر الذي يسمح له بأن يرى، في المجال الأثيري، أكثر مما يراه الإنسان المحكوم بمادية كيانه إلا ما يسمح له الله به من كشف. إلا ان ذلك لا يمنع من أن يقع اللوم على الفريقين في عدالة الله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} ﴿١٣٠/ الأنعام﴾.

وندرك من هذه الآية أن هناك رسل تُرسل للجن من نفس كيانهم، ورسل تُرسل للإنسان من نفس كيانه. فجميع مخلوقات الله تتشابه لكنها لا تتماثل، لأن خلق الله يتشابه قانونا لكنه لا يتماثل. ويقول الله للفريقين، لمن ضل من المؤمنين، وللشيطان: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} ﴿٦٤/ يس﴾. ذلك لأن الشيطان قد استحوذ علي بني آدم وأنساهم ذكر الله وتعاليمه..

اليوم/ المؤمنون

أما الآيات المتعلقة بالمؤمنين والوارد بها كلمة "اليوم" فهي كغيرها من هذه المجموعة المتعلقة باليوم الزماني، ليل ونهار، أو باليوم المجازي، فهي تشير إلى ما أنعم به الله علي عباده من نعم. ونطالع في آية واضحة تحديدا لمعالم المؤمن وما علي المؤمن أن يلتزم به: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} ﴿١٣٦/ النساء﴾.

ذلك لأن المؤمنون رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإتاء الذكاة، ويخافون يوما يواجهون فيه بعملهم. ويتكرر نفس المعني والوصف الواضح للإنسان المؤمن: {قُل لِّعِبَادِيَ

الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ} ﴿٣١/ إبراهيم﴾.

ويفرق المولي سبحانه بين أهل الكتاب بوضوح وخاصة الصالحين منهم: {لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّـهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَـٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} ﴿١١٤/ آل عمران﴾. ومزيدا من التوضيح الموجه للمسلمين وتوضيح معني البر بالنسبة للمؤمن، فالبرّ يعني الصدق والطاعة في آن واحد. وكأن الفعلين متلازمين لا انفصال بينهما بالنسبة للمؤمنين:

{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ﴿١٧٧/ البقرة﴾.

ويتطلب موقف المؤمن أن يكون واضحا في معاملاته ويفضّل الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، بل ولا يتهاون في هذه الجزئية مع أي شخص أيا كانت درجة القرابة. فهؤلاء الأمناء كتب الله الإيمان في قلوبهم وأيدهم بروح منه.. ويوجه المولي عز وجل للمؤمنين درسا تربويا في كيفية تقديم الصدقات والمساعدات دون جرح المشاعر، بل ويعتبر العطاء بالتعالي وجرح شعور المتلقي من أعمال الكافرين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّـهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} ﴿٢٦٤/ البقرة﴾.

اليوم/ الكافرون

تتمحور الآيات المتعلقة بالكافرين في مجموعة "اليوم" حول موضوع واحد، متعدد الصيغ، وهو الشرك بالله بمختلف التفاصيل والمواقف. الشرك بالله وخاصة نفور الذين كفروا من سماع القرآن

ورفضهم ما يُتلي عليهم. فعندما كان الرسول صلوات الله عليه يتلو عليهم آيات القرآن البينات، كان الذين لا يرجون لقاء الله يقولون للنبي أن يأتي بقرآن غير الذي يبلغّه أو أن يبدّله! وهو المطلب الذي لا يزالوا يجاهدون لتحقيقه حتى يومنا هذا بشتى الوسائل ولا يخشون يوم الحساب. بل لقد سخروا من ذلك اليوم الرهيب ومن النار، وأنها لن تمسهم إلا أيام معدودة. وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون..

ويجيبهم رسولنا الكريم بأنه لا يملك أن يبدّله من تلقاء نفسه، فهو يتبع ما يوحي إليه ويخاف إن عصي ربه عذاب يوم عظيم (15/ يونس). بل يعجب الرسول من موقفهم ويتلو عليهم ما أوحي إليه: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ﴿٩/ فصلت﴾.

ويتواصل العناد والإصرار على الرفض والتمسك بالكفر والشرك بالله، وكأنهم نوع محدد من الحُبُك، كأنهم نسيج معدني مكون من حلقات صغيرة متماسكة كنسيج الدرع الصدري الذي كان يرتديه المحاربون قديما! ويعيد رسول الله الدعوة ولا يكلّ عن تبليغ الرسالة، فيقول لهم: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} ﴿٣/ هود﴾.

ولا تجدي معهم المحاولات، فيقول رب العزة: {فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} ﴿٤٦/ الطور﴾. فويلٌ للذين كفروا.. ولم يتوقفوا عن عنادهم، بل لم يتوقفوا عن محاربة المؤمنين، والاستهانة بالقرآن الكريم، ومحاولة تغييره أو التلاعب فيه.. واتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرّتهم الحياة الدنيا..

وتتنوع صور الكافرين في القرآن من المتمسكين بالكفر إلى من ارتابت قلوبهم ويترددون في ريبهم، لكنهم كالحُبُك المعدنية الصدأة. كانوا ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وكان الشيطان لهم قرينا. ومنهم من كانوا يقولون آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين،

وفي اليوم الموعود، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، يوم يعض الظالم على يديه ويقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يُصدمون بأن الوقت قد فات!

ويصور لنا القرآن الموقف جليا، موقف الكافرين يوم الحساب والمولي سبحانه يسألهم: {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ}؟ ويتكرر نفس السؤال في نفس سورة **"القصص"** (62 و74). وسبحان من يكشف مواقفهم بوضوح {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّـهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} ﴿23 و24/ الأنعام﴾! ويا للأكاذيب. وبدت أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف..

ولا عجب، فلقد قالها الله بوضوح شديد منذ بداية الخلق في آية واحدة، لكننا تقاعسنا:

{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّـهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّـهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} ﴿٣٦/ التوبة﴾.

اليوم / الحساب

تمثل الآيات المتعلقة بيوم الحساب أكبر مجموعة من الآيات التي وردت بها كلمة "اليوم"، وذلك بصورة لافتة للنظر. وتشتمل على عدة موضوعات هي: وصف المولي عز وجل لقانون الحساب؛ الرسول عليه الصلاة والسلام وتبليغه الرسالة ؛ المؤمنون ؛ الكافرون ؛ يوم الحساب. وتسير كل هذه العناصر متجاورة متماسكة في القرآن وفي الحياة الدنيا، أشبه ما تكون بخطوط مختلفة اللون في النسيج الواحد.. خطوط محبوكة تتجاور وتمتد بأعمال الناس من الدنيا إلى يوم الحساب.

ويقول المولي في سورة **"الأنعام"**: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} ﴿٧٣﴾. ونطالع في سورة **"الدخان"**: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ} ﴿١٦﴾. وفي سورة

"**الطور**": {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} ﴿١١﴾. فكلمة الله حق، ويوم انتقامه عظيم الهول، خاصة بالنسبة للمكذبين بالدين ومن يحاربونه بل ومن يتقاعسون..

ومثلما توعد الله الكافرين بالبطشة الكبرى، وعد أن يُنجي وينصر الذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم. فلم يخلق الله السماوات والأرض عبثا وإنما من أجل هدف ورسالة محددة واضحة هي الالتزام بكل تعاليمه وتوجيهاته لنرقي ونتقدم كبَشَر، أي كإنسان مكوّن من جسد ونفس وروح. وأوضح كل ما على الإنسان من التزامات في حق الله، وما عليه من واجبات في هذه الدنيا، وما يجب أن يتحاشاه استعدادا ليوم الحساب. ويوم نرجع إليه سبحانه ينبئنا بما عملنا، فهو بكل شيء عليم: {أَلَا إِنَّ لِلَّـهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ﴿٦٤/ النور﴾.

وعلي الرغم من كل ما أنزله ربي من وصف للسماء، فله عز وجل ثلاث آيات تمثل إعجازا لذلك المسرح الشاسع الذي سيشهد محاسبة البشر والجان.. محاسبة المؤمنون والكافرون في كل مواقف حياتهم واختياراتهم. آيات جد مقتضبة لكنها تحمل من المعاني والتفاسير ما يحتاج إلى بحث مستقل. فقد وصفها قائلا:

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} ﴿١/ البروج﴾

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} ﴿٧/ الذاريات﴾

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ} ﴿١١/ الطارق﴾، وذلك بعد أن وصفها في بداية نفس السورة وأقسم بها: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ} ﴿٢/ الطارق﴾، ويستعرض تكوين ذلك النجم المهول بوزنه (فقطعة في حجم قالب السكر تزن 100000 كج)، وذلك الإنسان الذي ينسي أصل تكوينه المهيّن، وأنه قادر علي إعادته إلى هذه الدنيا: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} ﴿١٤﴾.

ولو تأملنا مفردات كل وصف على حدة لوجدنا أن البروج منها بروج الفَلَك والكواكب، ومنها أبراج المدينة والقصور. وأن المقصود بالكلمة في هذه الآية كل أوصافها، بروج الفَلَك وبروج الحصون والسكن. إذ يقول المولي {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} (78/ النساء)، كما يقول سبحانه: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} ﴿١٦/ الحجر﴾.

أما معاني الحُبُك فقد تناولتها بالتفصيل في المقدمة، وتعني كل ما يُمسك ويربط الكون والسماوات والأرض وما عليها من بشر ومخلوقات، ويربط بينها بإحكام بمختلف أنواع الحُبُك، سواء للتثبيت أو للتواصل.

وعبارة "وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ" تعني: الرجع هو كالصدى، أي أن تعود الحركة المُرسلة أو أن تتردد إلى أن تتلاشي. ولم يتم فهم معني كلمة "الرجع" في هذه الآية إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين. فقد تم اكتشاف سبعة أنواع من الرجع بالنسبة للسماء، يلخصها الدكتور زغلول النجار كالآتي: "رجع اهتزازي للهواء ؛ الرجع الحراري إلي الأرض وعنها إلي الفضاء ؛ رجع الغازات والأبخرة والغبار المرتفع من سطح الأرض ؛ الرجع الخارجي للأشعة فوق البنفسجية بواسطة الأوزون ؛ رجع الموجات الراديوية بواسطة النظام المتأين (= بين 100 و400 كم) فوق مستوي سطح البحر ؛ ورجع الاشعة الكونية بواسطة كل أحزمة الاشعاع المغناطيسي للأرض".

فلو تأملنا معني هذه الكلمات الثلاثة لأدركنا إجمالا معني تلك السماء الشاسعة التي يصعب تصورها وكل ما سيدور بها يوم الحساب. فلقد وعد المولي سبحانه أنه سينجي رسله والذين آمنوا معهم، وكذلك حقاً عليه سبحانه أن "ينجي" و"ينصر".. كلمتان واضحتان تلخصان مقدما خلاصة ذلك اليوم المشهود. فهو عالم الغيب وهو الحكيم الخبير. وقد جعل ميقات يوم الفصل للجميع.

أما المكذبون بالدين فقد أنظرهم المولي عز وجل بما يساوي ثلث آيات القرآن الكريم، ليكشف كفرهم أولا، ثم لخصه سبحانه في سورة "**الإخلاص**". ويقسم رب العزة أن ما يوعدنا به لواقع. ونطالع في سورة "**المرسلات**"، حيث يصف أهوال يوم الفصل ثم يتوعد المكذبين قائلا: {وَيْلٌ

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ}. ويكررها ربي عشر مرات في سورة مساحتها صفحة ونصف! وهنا ندرك هول ما يتوعد به المكذبون بالدين وكل ما فعلوه في حق المؤمنين وفي حق أنفسهم.

رسول الله وتبليغه الرسالة

حينما يقول المولي سبحانه وتعالي لرسوله الكريم: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} ﴿٤/ القلم﴾، وذلك في الجزء قبل الأخير من أجزاء القرآن الكريم، ومعرفتنا بكل ما مر به هذا الرسول عليه الصلاة والسلام من أحداث ومعاناة ومهانة بل ومحاولة اغتيال، وكل ما تعرض له من صدّ واتهامات من الكافرين والرافضين والمنكرين، لا نملك إلا أن نزداد حبا وتمسكا بإنسان أمضي حياته في طاعة الله بكل أمانة وبكل المقاييس: فهو الصادق الأمين الذي أكرمه رب العالمين بكل ما استأمنه عليه، ومن إطلاع علي الغيب ورؤيا تعاونه في رسالته، وتجربتا الإسراء والمعراج، وخاصة ذلك الوصف الكامل الشامل: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}.

وتمثل هذه العبارة المتعلقة بالخُلُق العظيم حبيكة من الحبائك الأساس التي يجب أن يتعلق بها كل مسلم ومسلمة، لتكون الصلة بينه وبين ربه والصلة بينه وبين الناس. فعلي الرغم من كل ما تعرض له الرسول من صدً ومقاومة، واصل تبليغ الرسالة بكل أمانة والتزام. وتتلخص هذه الرسالة في قوله تعالي وتبارك بكل بساطة ووضوح: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} ﴿٧/ الشوري﴾.

وهي آية أساسية يوضح فيها رب العالمين باختصار شديد: وحيّ القرآن، إنذار أم القري وما حولها، وإنذارهم يوم الجمع، أي يوم الحساب الذي لا شك فيه، فنتيجته هي ببساطة ووضوح: فريق في الجنة وفريق في الحريق! وكأنها تلخيص شديد للإطار العام للدين. ونتوقف عند عبارة "أوحينا إليك" القائم عليها الدين كله:

ان الوحي جزء أساسي في مجال الغيب ويمثل الاتصال الروحي المباشر وتفاصيله واردة بالقرآن وخلاصتها: الله سبحانه وتعالي أوحي أو كلّف سيدنا جبريل، الروح الأمين، أن يبلغ محمد

الرسول، أي أن يوحي له هذا القرآن. فلا مجال آخر للاتصال بينهما، أحدهما روحا والآخر إنسانا، ولا اتصال بينهما إلا عن طريق مجال الوحي الروحي. واستمر الوضع 23 سنة معروفة بكل تفاصيلها. وهو ما يمثل معجزة خارقة في حد ذاتها في نفس مجال الغيب. وقد تناولت هذا الجانب بمختلف جوانبه في القرآن في بحث **"الغيب في القرآن"**.

ومن اللافت للنظر أن المجال الروحي كان معروفا أيام الرسول صلوات الله عليه، وهو مما نطالعه في قاموس **"لسان العرب"** (المجلد الرابع صفحة 77) وهذا نصه:

"الراجعة: مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم، ومذهب طائفة من فرَق المسلمين من أولي البدَع والأهواء، يقولون: أن عليّ بن أبي طالب، كرم الله وجهه، مستتر في السحاب فلا يخرج مع من يخرج من ولده حتى ينادي مناد من السماء: أخرج مع فلان، قال: ويشهد لهذا المذهب السوء قوله تعالي {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ}".

واللهم لا تعليق على عدم فهم الآية بعد نزعها من مضمونها، وعلى التحجج بها لاستبعاد مجال الغيب من القرآن. وخاصة بعد فصلها عن الآية التالية لها وهي قطعا مكملة لها، وهو ما يؤكد إن استبعاد المجال الغيبي والروحي من القرآن هو جريمة تمت بفعل فاعل. فلو قرأنا الآيتان المتتاليتان لأختلف الوضع:

{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾}

ولو تأملنا بموضوعية تامة ما ورد بالقرآن وبحياة سيدنا محمد من وقائع ثابتة تاريخيا، لأدركنا أن المجال الغيبي والمجال الروحي جزء لا يتجزأ من القرآن الكريم. ولا أذكر فيما يلي سوي بعض الآيات الشديدة الوضوح وما أكثرها:

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّـهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّـهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} ﴿٤/ الفتح﴾؛

{وَلِلَّـهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّـهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} ﴿٧/ الفتح﴾؛

{ثُمَّ أَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} ﴿٢٦/ التوبة﴾؛

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} ﴿٩/ الأحزاب﴾.

ومما لا شك فيه أنه لو استبعدنا المجال الغيبي والمجال الروحي من القرآن فإن ذلك يعني أننا نقوم بإلغاء الوحي الإلهي منه بكل المقاييس، بل نقوم بإلغاء رسالة الإسلام بكلها. فالوحي هو أساس تبليغ رسالة الإسلام. وأن يقوم أحد غير المدركين من المفسرين أو أحد علماء الكفرة العارفين باستبعاد هذا المجال من القرآن ومن الأبحاث وتعميمه أو فرضه، على الرغم من وضوحه في القرآن، فالعيب يقع علينا الذين قبلنا المساس بالقرآن رغم الوضوح الشديد. والوضع بحاجة الي العديد من الأبحاث لتوضيحه وفهم ما أبلغنا المولي عز وجل، وحماية للقرآن من التلاعب به والهجوم عليه. وهو ما يحاولون عمله خاصة في فرنسا حيث صدر في مطلع العام الماضي بحث جماعي "لفضح ما بالقرآن من تحريف وإثبات أنه غير منزّل من عند الله وهو من أربع مجلدات وعنوانه: **"قرآن المؤرخين"** (**Le Coran des Historiens**)!

ولو تأملنا ما قام به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كرسول: فقد التزم بكل ما أوحي إليه بلا أي تردد أو تدخل من عنده: إيمانٌ والتزامٌ ومعايشةٌ تامة لكل ما تلقاه من رب العالمين وحياً عن طريق سيدنا جبريل الروح الأمين.

الساعة

وردت كلمة "الساعة" 48 مرة في القرآن، وتختلف معانيها ما بين الساعة الزمانية، كقوله سبحانه وتعالي: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} ﴿٣٤/ الأعراف﴾.

ومقدار الساعة الزمنية ستون دقيقة معروف من أيام الحضارة السومرية. وتكررت نفس الآية تماما في 49/ **"يونس"**، وفي 61/ **"النحل"**. الأمر الذي يوضح لنا أنها من الحقائق الهامة الثابتة التي لا تغيير لها. كما ترد بمعني تحديد وقت ما، مجرد إشارة إلى الوقت، كما في سورة **"التوبة"**: {لَّقَد تَّابَ اللَّـهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} ﴿١١٧﴾.

إلا أن أكثر استخدامها متعلق بتلك الساعة الحاسمة الفاصلة، التي تسبق يوم الحساب.. وهي الساعة التي علمها عند رب السماوات والأرض. فهي من الأمور المغيّبة عن الإنسان بحكمة إلهية. ونطالع تأكيد ذلك في آية توضح لنا: ما تدري نفسٌ ماذا تكسب غدا وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت. لأن علمها عند الله سبحانه وتعالي ولا يجلّيها لوقتها إلا هو. وكأن هذه التحديدات المختلفة عبارة عن حُبُك متنوعة تربط الإنسان بالزمن في الدنيا مثلما تربطه بالزمن الغيبي الذي لا يعلمه إلا الله، كما تربطه بيوم الحساب. لأنها لن تأتي إلا بغتة والإنسان لا يشعر إلا وقد وقعت، لكي يواصل حياته وينقاد لاختياراته التي سيحاسب عليها.

وتؤكد معظم الآيات المتعلقة بالساعة كمقدمة ليوم الحساب أن مرساها وعلمها عند رب العزة، لا يجليها لوقتها إلا هو، لأنها لن تأتي إلا بغتة والناس لا يشعرون. ويزيدنا المولي علما بتأكيد بغتتها قائلا: {وَلِلَّـهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ﴿٧٧/ النحل﴾. وعندما تقوم الساعة يتم تقسيم الناس الي مؤمنين وكَفَرَة: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَـٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} ﴿١٦/ الروم﴾. ويتكرر تأكيد قدوم الساعة بغتة في عدة آيات بتنويعات مختلفة:

{إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} ﴿٥٩/ غافر﴾،

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} ﴿٦٧/ الزخرف﴾،

{إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ} ﴿١٥/ طه﴾.

ونفهم من هذه الآية الأخيرة، بخلاف تأكيد قدومها ووقوعها بغتة في أقل من لمح البصر، أن المولي عز وجل يوضح لنا أنه سبحانه يكاد يخفيها لتجزي كل نفس بما تسعي. لكي تكون أعمال الناس وتصرفاتهم واختياراتهم حَكَماً عليهم. وعلي الرغم من كل التحذيرات الواردة بالقرآن فكثير منهم ينكرونها ومنهم من يشفقون منها. أما من ينكرونها فقد أعد الله لهم سعيراً: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} ﴿١١/ الفرقان﴾. وإلي هنا فالمعلومة تندرج مع نفس مجموعة التحذيرات للمكذبين. أما الأية التي تليها فهي تفسر لنا رد فعل النار، النار التي تستعر غيظا من موقف الناس وما أجملها عبارة: {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾! فحتى النار التي لا نلتفت إليها إلا استجارة منها، تشعر وتنفعل من أفعال بعض البشر لعدم إيمانهم!

تقلص معيار الزمن

هناك جزئية تجدر الإشارة إليها في الآيات المتعلقة بالزمن، فقد وردت بتقسيمات ومسميات تنازلية مختلفة. وتشير إلى كيفية شعور الإنسان بالزمن عند الانتقال إلى العالم الآخر. ومنها:

* {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} ﴿١٠٤/ طه﴾؛

ومن مقياس يوم محدد يبدأ الزمن في التنازل فنطالع:

* {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ} ﴿/ المؤمنون١١٣﴾؛

* {وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...} ﴿١٩/ الكهف﴾.

* {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّـهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّـهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ...} ﴿٢٥٩/ البقرة﴾.

ولا يتوقف التقدير المتقلص أو المعيار التنازلي عند "يوم أو بعض يوم"، ولكن ينخفض إلى "عشية أو ضحاها". وهذه العبارة، "عشية أو ضحاها"، هي أقل يقينا من مقدار "يوما أو بعض يوم". فنطالع في بعض الآيات:

* {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} ﴿٤٦/النازعات﴾.

ويزداد تقلص الوقت، فبعد عشية أو ضحاها نطالع:

* {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} ﴿٣٥/ الأحقاف﴾ ؛

* {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّـهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} ﴿٤٥/ يونس﴾؛

* {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} ﴿٥٥/ الروم﴾.

وتتضاءل المدة حتى نري حجم الزمن وقد تقلص إلى مجرد عبارة "إلا قليلا":

* {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} ﴿٥٢/ الإسراء﴾.

* {إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} ﴿١١٤/ الممنون﴾.

وتحدد لنا هذه الآيات الأربع فهم معني تقلص الزمن، وأنه مرتبط بيوم الحساب. فعندما جزي الله المؤمنين، ثم يسأل غيرهم، ولعلهم من الشخصيات الضحلة أو غير المؤمنين، فقالوا "يوما أو بعض يوم". ويأتي رد المولي عز وجل حَكَما على حياتهم وأنهم إن لبثوا إلا قليلا. وهو ما يكشف لنا ملمحا من ملاح يوم الحساب، وندرك منه أن هذا التقييم الزمني مرتبط بقيمة حياة الإنسان على الأرض وما فعله بها وعليها..

وكأننا حين ننظر من السماء إلى الأرض يُضغط الزمن وتتباعد المسافة وتتضاءل حتى تكاد لا تُري أو لا تُذكر وفقا لأعمالنا والتزامنا بتعاليم الله سبحانه وتعالي.. فمن يوم، أو بعض يوم، إلى عشية أو ضحاها، ثم تتقلص إلى مجرد ساعة، ومنها إلى عبارة تكاد لا يكون لها قيمة: "إلا قليلا". وكأنها تعني شيء تافه، لا قيمة له!

ويبدو أن نظرتنا من السماء إلى الأرض تضغط الزمن، وكأنها حُبُك تُحبك لتعتصر قيمة حياة الإنسان على الأرض. فالآيات واضحة صريحة حين نطالع: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّـهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} ﴿٥٧/ الروم﴾..

الخاتمة

من أهم ما نخرج به من هذا البحث، وهو متعلق بالحُبُك، ثلاث ملاحظات لم أكن أتوقعها حين بدأت مشواره، وأولها موضوع الشرك بالله سبحانه وتعالي! وكأن القرآن قد أُنزل لاستنكار هذه الجريمة التي لا تُغتفر. وثانيها موضوع إعادة خلق الإنسان، وقد تناولته بشيء من التفصيل في كتاب "**الغيب في القرآن**". وثالثها قد بهرني لغويا، وهو: موضوع "الأنسنة" في القرآن، أي إضفاء صفة من صفات الإنسان الإنسانية أو الانفعالية على الأشياء والجماد! وهو موضوع جدير ببحث في حد ذاته في القرآن.

فحين بدأت بتجميع الآيات المتعلقة بكل فصل من الفصول لم أكن أتوقع على الإطلاق أن تصادفني آية متعلقة بالشرك بالله أو إدانته، خاصة في جزئية العرش والكرسي وخلق السماوات والأرض! ثم دهشت أكثر حين وجدت أنه ما من جزئية في أي نقطة من النقاط التي تناولتها إلا ووجدت بها آية أو عدة آيات تدين أكبر جريمة تمت في التاريخ، نظرا لتبعاتها خاصة علي الإسلام..

الشرك بالله

فلقد وردت كلمة "الكُفر" في القرآن بتنويعاتها المتعددة أكثر من 550 مرة، منها 19 مرة بصيغة "كَفَرَ"، و194 مرة بصيغة "كفروا" بخلاف مختلف التصريفات الأخرى. ولا يسع المجال هنا لتناول هذه المئات من الآيات التي تدين الشرك بالله سبحانه وتعالي، بل وتثبت ما تم من تلاعب في الرسالتين السابقتين. ونطالع على سبيل المثال لا الحصر:

* {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّـهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ﴿١٧/ مريم﴾،

* {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ﴿٧٣/ المائدة﴾،

* {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ﴿١٠١/ الأنعام﴾،

* {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} ﴿/ الفرقان٢﴾،

* {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّـهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} ﴿١١٦/ البقرة﴾،

* {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} ﴿٩٠/ مريم﴾.

مجال الغيب وإعادة الخلق

من الصعب لإنسان أن يقرأ القرآن ولا يلحظ وجود "الغيب" بمختلف مجالاته، بل إن الإيمان به قد فرضه الله عز وجل على المؤمنين في ثالث آية من سورة "البقرة"، وهي السورة التي بها أهم آيات القرآن وتعاليمه وتاريخه، وأطلقوا عليها الزهراء، وسنام القرآن، وفسطاط القرآن. كما أن بها الآية التي تلخص صفة المتقين بعامة وهي: الإيمان بالغيب، إقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقنا الله سبحانه وتعالي. وهي أبجدية تعريف المسلم بقول ربي:

{الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} ﴿٣/ البقرة﴾.

فأن يكون العالم أجمع أو بعض الحضارات أو الفرَق أو بعض الجماعات أو حتى بعض الأفراد قد استغلوا مجال الغيب بسوء فهم أو أساؤوا استخدامه أو استغلاله، فذلك لا يجب ولا يجوز أن يكون سببا لاستبعاد المسلمين أو علماء المسلمين ليتجاهلوا مجالا هو أول ما فرضه الله سبحانه وتعالي على المؤمنين وكلّف به المتقين.

فالوحي ومجال الغيب يسريان عبر نص القرآن كالدم في جسم الإنسان. ولولا هذا السائل الذي أوجده الله سبحانه وتعالي في جسم الإنسان لما قامت للإنسان قائمة. فكل ما خلق ربي جل في علاه أوحي له ما هو المطلوب منه أن يقوم به في بداية خلقه. فقد استوي الله إلي السماء وهي دخان وقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحي في كل سماء أمرها (12/ فصّلت). كما أوحي إلى الملائكة، وإلى الأرض، وأوحي إلى النبيين من نوح واسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وأخيه، وأوحي إلى سيدنا محمد صلوات الله عليه. وما أكثر الآيات التي تنص على الوحي، ومنها:

* {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّـهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} ﴿٥١/ الشورى﴾،

* {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨/ النحل﴾}،

* {ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّـهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا} ﴿/ الإسراء٣٩﴾،

* {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} ﴿١١/ مريم﴾.

وقد توصل علماء الغرب إلى إثبات مختلف مجالات الغيب ومنها الجلاء البصري، والجلاء السمعي، وتوارد الخواطر، والطرح الروحي، وحقيقة إعادة التجسد، بحيث أصبحت هذه الموضوعات وغيرها من العلوم المستقلة بذاتها وأصبح لها أقسام في بعض الجامعات. ولم يبدأ

الغرب دراسة هذه المجالات علميا وعمليا إلا في أواخر القرن التاسع عشر، أما القرآن الكريم فيحتوي عليها منذ القرن السابع!

وليس بغريب أو أن يعدّ بخروج عن تعاليم الله سبحانه وتعالي أن نحاول فهم ما يحتوي عليه القرآن من معلومات وتوجيهات خاصة في مجال الغيب. ولا يسع المجال هنا، في هذه الخاتمة، لنقل كل ما أوضحه لنا رب العزة من توجيهات ومعلومات وتوصيات لنفهم ونتدبر ونتأمل في كل ما أحاطنا به علما.

وتكفي الإشارة هنا إلى جزئية بدء الخلق وإعادة خلقه، أي حقيقة إعادة تجسد الروح. وفيما يلي بعض الآيات الشديدة الوضوح:

* {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّـهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} ﴿٤/ يونس﴾،

* {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّـهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ} ﴿٣٤/ يونس﴾،

* {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّـهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} ﴿١٩/ إبراهيم﴾،

* {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} ﴿١٠٤/ الأنبياء﴾،

* {أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} ﴿٦٤﴾،

* {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّـهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّـهِ يَسِيرٌ} ﴿١٩/ العنكبوت﴾،

* {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ﴿٢٧/الروم﴾.

ولا يعدّ خروجا على تعاليم الله سبحانه وتعالي إن قلت إن الإسلام قائم على وجود عالم الغيب في القرآن. فلو شرحنا هذا القول كنظرية رياضية وتساءلنا عن العناصر الأساس التي قام بها وعليها الإسلام لكان الرد بوضوح: الله سبحانه وتعالي الذي ليس كمثله شيء، سيدنا جبريل الملك، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام رسولا ونبيا. ولو زدنا وضوحا في التصور لوجدنا:

* الله جل في علاه: نور مطلق، طاقة مطلقة، قدرة مطلقة، وكل ذلك يدخل في مجال الغيب،

* سيدنا جبريل ملك من أكبر الملائكة، لكنه يقينا ليس بإنسان، وذلك يدخل في مجال الغيب،

* سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إنسان نبي ورسول، تلقي الرسالة وحياً من جبريل، ولم يتلقاها منقوشة على حجر أو مطبوعة علي ورق، وإنما وحيا يوحي عن طريق توارد الخواطر. فما معني إلغاء المجال الغيبي من القرآن إلا إلغاء نفس رسالة الإسلام؟!

الأنسنة في القرآن

"النزعة الإنسانية" هي مذهب أدبي وديني يضع الإنسان وتطوره وتقدمه فوق اعتبار أي شيء آخر. كما تعني كلمة "الأنسنة" إضفاء سمات الإنسان على كائنات أو أحداث غير آدمية، وكأنه بذلك يرقي بها كمخلوقات أو أشياء وأحداث إلى مستوي أعلي وأرقي. وتتعدد محاولات تحديد بدايات هذا المذهب وفقا للمدارس والعصور فأرجعوه نزولا إلى عصر النهضة. وحاول البعض من أدباء المسلمين في فرنسا، الإشارة إلى أن العرب، استنادا إلى أعمال مسكاويه والتوحيدي، قد سبقوا الغرب بخمسة أو ستة قرون. فهاجت الدنيا ولم تقعد حتى فندوا هذا الدليل واقتلعوه.

وها هو القرآن الكريم يوضح ويكشف لنا أنه أول من استخدم الأنسنة تعبيرا وتوجيها وتقييما. فكان سباقا، بأوسع معاني الكلمة، في إضفاء الأنسنة على العديد من المجالات سبحانه. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

"**الليل يتعسعس**"، وكأن إيقاع الكلمة يخبرنا بأن الليل يتلكأ ويتعثر وهو يتباعد. و "**الليل إذا يغشي**"، فهو يغطي بظلمته ساحة الأرض مثلما يتغطى الإنسان من البرد. "**والصبح إذا تعسعس**"، فعلى الرغم من أنها وردت مع الليل، إلا أنها هنا تبدو وكأن جرس الكلمة يعبر عن فرحة النهار من إزاحة الليل عن كاهله. وجعل "**النهار مبصرا**"، أضفت العبارة معني أن النهار له عينان يبصر بهما. و"**يوم عقيم**" توضح أنه يوم عاقر، مر بلا أية إنجازات ولا ثمار له أي أنه مر وكأنه لم يكن! و"**ريح صرصر عاتية**"، تلك التي سخرها المولي على قوم عاد ثمانية أيام كانوا فيها صرعي كأنهم أعجاز نخل خاوية. وهي يقينا عكس عبارة "**ريح طيبة**"، تنساب على من تمر عليهم وكأنها يد أم حنون تربت بعطف وحنان..

والأجمل منها تعبيرا تلك الآية التي نطالع فيها عبارة: "**هو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته**"، وكأن رحمة ربي سبحانه وتعالي لها يدان تنعمان بهما على عباده الصالحين.. وحين يكررها ربي عز وجل ثلاث مرات فهي تؤكد لنا مدي سعة هذه الرحمة ويداها على العباد:

* {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} ﴿48/ الفرقان﴾،

* {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ﴿٥٧/ الأعراف﴾،

* {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ ۚ تَعَالَى اللَّـهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ﴿٦٣﴾.

و"**الأرض خاشعة**"، و"**الأرض هامدة**"، إذا أنزل الله الماء على الأولي اهتزت وربت وكأن الماء أحياها، وإذا أنزله على الثانية، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج! وفي كلا الحالتين لا نملك إلا التبسم لشكل الأرض وهي تهتز كالبطة وترفرف بجناحيها من فرحتها بالماء.

و"**السماء تبكي**"! ويا لها من عبارة حين نطالع الآية بكاملها: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ} ﴿٢٩/ الدخان﴾.. وذلك حين يفجر القوم المجرمون، فكم تركوا من حدائق

وعيون وزرع، بل ومقام كريم ونعمة كانوا فيها سعداء! فيزيحهم رب العزة سبحانه وتعالي ويورثها لقوم آخرين..

ليتنا..

ليتنا نهتم بمختلف ملامح القرآن الكريم في مجال الغيب، مثلما اهتممنا أساساً، بكل ما به من تشريع وفقه ولغة، وكل ما تتضمنه من إعجاز..

كشف المراجع

* القرآن الكريم

* معجم لسان العرب

أشكال من الحُبُك

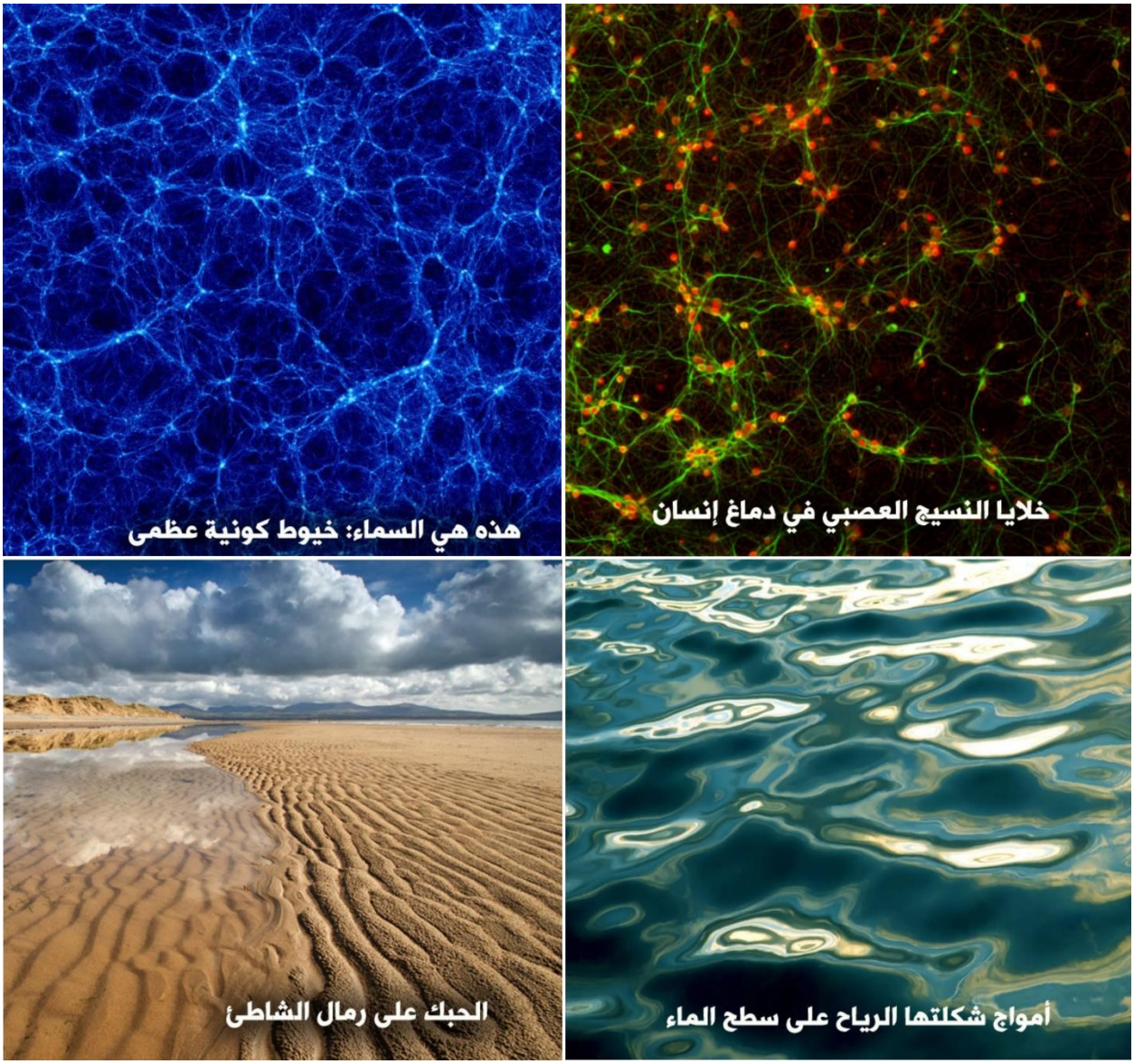

الصور من موقع أستاذ عبد الدائم الكحيل

الفهرس

المقدمة: 3

الفصل الأول: 11

العرش: 11، لمحة علمية: 17، الكرسي 19، لمحة علمية: 20، السماوات والأرض: 22 الماء 21، تكوين السماوات والأرض: 25، السماء ذات الحُبُك: 30، المعارج: 34، الغيب:36.

الفصل الثاني: 41

الظلمات، النور، بين السماوات والأرض 41:

1: الظلمات 41: الليل والظلام 45،

2: الشمس والنهار 50،

3: بين السماء والأرض 54: الحُبُك والقلب 61، حبك الحب في القرآن 65.

الفصل الثالث: 68

الزمن في القرآن: 68

الدهر، الأمد، الطرف 71، السنة، السنين 72، الشهر 73، اليوم 76،

اليوم/ تشريع وعبادة 79، اليوم/ الشيطان 80، اليوم/ المؤمنون 81،

اليوم/ الكافرون 21، يوم الحساب 84، رسول الله وتبليغ الرسالة 87،

الساعة 89، تقليص معيار الزمن 91.

الخاتمة: 94

الشرك بالله 94، مجال الغيب وإعادة الخلق 95، الأنسنة في القرآن 98.

كشف المراجع: 101

أشكال من الحُبُك: 102

الفهرس: 103